قصص

الحداد

يوسف القعيد

الحـــــداد

يوسف القعيد

الفهرس

الحداد

لا..

لن تدفنوه أبدًا.

لن يوارى في التراب حتى نأخذ بثأره أولاً.

* * *

وتقولون إن سترة الميت دفنه. إنه لم يمت. لقد قتل. من الذين قتلوه؟ لا أدري، ولا حتى حسن الأعرج الذي كان معه في الحقل في تلك الليلة السوداء. ولا حتى مأمور مركز إيتاي البارود يعرف من قتله. قتل الحاج منصور أبو الليل وراح يحمل سره معه. صمت إلى الأبد، لا يوجد منه سوى جسد تفوح منه رائحة معه، صمت إلى الأبد. لا يوجد منه سوى جسد تفوح منه رائحة نتنة. وعينين لم تغمضا ساعة موته فبقيتا تحدقان في سماء بلا نجوم. مسكين يا منصور أبو الليل. أنت نائم الآن على الساقية. الريح تصفر حولك، والغفير المعين لحراستك يقف بعيدًا عنك يرفع صوته كي يقتل خوفه. كي يوهم نفسه بأنه لا يخاف. لا أحد يحنو عليك أو يقترب منك. سوى شجرة الصفصاف. فهي الآن واقفة إلى جوارك لم تفزع ولم تخف. ما زالت تظللك وتبكيك.

* * *

ـ وكل من عليها فان، ولا يبقى إلا وجه ربــك ذو الجلال والإكرام، يا عباد الله توفي اليوم.

* * *

ـ رايحة فين يا بت يا عيشة؟

صوت شيخ الغفر، جبناء الأمس غدوا أبطال اليــوم فكيف حدث هذا؟

ـ ذاهبة إلى والدي.

ـ ممنوع.

ـ م إيه؟

ـ ممنوووع، أنا با تكلم عربي.

وتلك بداية الإهانات يا أبي. رفعت الديدان رؤوســها من وسط الطين. لن أضعف أمام أي منهم. لن أتوسل إليك، أنا ابنتك أنت، ابنة الحاج منصور أبو الليل رجــل ولا كــل الرجال، كل هؤلاء لم يكونوا شيئًا بالنسبة لك. كان رضــاك عنهم أمنية كل منهم، كلهم ديدان صغيرة. لم أعــرف هــذه الحقيقة إلا بعد أن قتلوك.

* * *

ـ توفي اليوم إلى رحمة الله تعالى.

ـ تعرفي أنا سميتك عيشة ليه؟

كنت صغيرة، كان الليل يسقط على قريتنا كرداء سميك.

ـ وأنا إيش عرفني؟ يمكن علشان أتولدت في موسم البلح.

ضحك، كيف قتل؟ كيف انتهت حياته في لحظة قصيرة؟ فيها سبب أهم من كدا، وأنا صغير حبيت واحدة اسمها عيشة.

هل كنت تحب يا أبي؟ أنت رجل صارم تضحك قليلاً، بصفة نادرة الحدوث إذا كنت بين الناس، في المنزل لم تكن تضحك إلا معي، حتى حامد أخي الأكبر لم تبتسم في وجهه، فيم العجب، خلف هذه الملامح الجامدة وهذا الصدر القوي، قلب ينبض، في كل الصدور قلوب، قد يكون ما تنبض به حبًا أو كراهية، ولكنها قلوب على أية حال، باقي الحكاية معروف، البنت ما كا نتش من بلدنا. عايز أتجوزها يا با. قال لأ. كانت هيه الكلمة. ما قدرتش أرد عليه. تاني يوم ما لقتش عيشة ولا حد من أهلها.. ما ذنبهم هم؟ قال في

مرارة. وما ذنبي أنا؟ واغتيال الأمنيات الصغيرة ووأد أحلامنا البكر يفقد الحياة معناها. فما قيمة كل شيء؟!.

* * *

لا

لا تدفنوه أبدًا

لن يوارى في التراب حتى نأخذ ثأره أولاً.

* * *

كانت الشمس تميل ناحية الغروب، بدت كقرص أحمر قان، والنبي يا با الحاج، اقترب القرص الأحمر من السقوط في مياه الترعة، عايز إيه يا أحمد؟ يوم يموت بعد قليل، يسقط الظلام فيلف كل شيء.

أصل شيخ الغفر طالع معاش الشهر الجاي، ضحك أبي: يعني عايز إيه؟ ضحك أحمد ضحكة صفراء، ما أنت عارف يا با الحاج، تكلم العمدة أنا برضه أنفع شيخ غفر. لم ترد عليه. غطس قرص الشمس في مياه الترعة. انهال على يديك تقبيلاً في حب وإخلاص مزيفين. لم تلاحظه ساعة أن مشى من أمامك، ظلال البيوت الباهتة قد استطالت. بدا البخار الأبيض يخرج مع الكلمات من الأفواه المسكينة، رفع

يده بزهو الطاووس، أعاد وضع الطاقية على رأسه، ما إن انتهى من حارتنا حتى ضرب الأرض بقدميه. سار في طريقه، هبط المساء، لف قريتنا بغلالة رمادية حزينة، كم أحبك يا أبي، كم أحب وجهك الأسمر وجبهتك العريضة وصدرك المزروع بشعر أسود أكثر غزارة من النجيل الأخضر على شط الترعة التي تغذي ساقيتنا بالمياه. كم أحب الأسد الذي رسموه على صدرك العريض، كم أنت قوي، فارع الطول، عينان صغيرتان مدببتان، ذراع عملاقة كتب عليها بمداد أخضر منصور أبو الليل من أعيان الضهرية، مركز إيتاي البارود، مديرية البحيرة.

* * *

يا خالة الحاجة طمان، يا أهل الدار، لحظات الميلاد، ذرات الضوء تتساقط، كتل الظلام قد ولت هاربة، أسلاك الشمس الصفراء تتسلل في حقل ريفي، صوت حسن الأعرج، لم يكن قد استيقظ أحد في الحارة بعد، منزل واحد يفتح ساعة الفجر ليخرج الشيخ مسعود إلى الجامع. وهو في آخر الحارة من الداخل، المنزل المقابل لمنزلنا هو منزل سكينة، لا تصحو من النوم إلا في العاشرة صباحًا. ثالث

منزل هو منزلنا، الحارة مسدودة، منزلنا بابه يفتح مـــع أول ذرة ضوء بعد ليل أسود صامت. الحـــارة ضـــيقة، عنـــدما تدخلها تفاجأ في آخرها بمنزل الشيخ مسعود كسد أبدي، عند أول الحارة توجد مصطبة صنعت لوالدي، ما إن يأتي الجزء الأخير من النهار حتى تفرش حصيرة على هذه المصـــطبة، فوق الحصيرة فروة آخر خروف ذبح في عيـــد الأضـــحى، بجوار المصطبة قلة يشعرك منظرها الخارجي بـــأن الميـــاه بداخلها باردة. تمتد جلسته حتى آخر الليل. آخر الليل عنـــدنا يأتي بعد سقوط الظلام علينا كالقدر بوقت قليل. يـــا خـــالتي الحاجة طمان يا ست عيشة. على الرغم من أنك تعـــد أحـــد أفراد عائلتنا، لم تنادي هكذا من الخارج؟ ولم حضرت فـــي هذا الوقت؟ لست غريبًا عنا، كلنا غرباء، عايز إيه يا حسن؟ أدخل، حتى صوته بدا غريبًا، لا مش داخل، تعالي يا خالتي، كان يلهث، على وجهه حبات عرق علـــى الـــرغم مـــن أن نسمات الصباح الباردة كانت تهـــب علينـــا، أبويـــا الحـــاج منصور، بدا حسن ضئيلاً لحد الضياع. عايز الفطار؟ لا يـــا جماعة أصله مات امبارح. مات؟ الموت هو الحقيقة الوحيدة المؤكدة. قصدي النهاردة الصبح بدري توفي إلى رحمـــة الله

تعالى. مات، قصدي انقتل، الحاج منصور أبو الليل، انقتل؟!. بعد ما انقتل مات على طول، يقصد أنه قتل، أي مات، بعد أن مات قتل، المهم أنه مات.

* * *

مساء الخير يا ست عيشة، شيء لله يا أهل الله، كنت ذاهبة إلى مسجد سيدي تاج الدين، كان الوقت ليلاً، معي حسن الأعرج، لا أعرف لم يسمونه الأعرج، قدماه في قوة الحديد، مين زهران؟ العجز سر مأساتنا، أيوه زهران، إزيك يا عيشة، ظهر على وجه حسن ضيق عاجز، قال: خير، فيه إيه يا زهران؟ أنت ما فيش حد مالي عينك في البلد؟ دي بنت الحاج منصور أبو الليل سيد البلد كلها، قال له زهران: اسكت يا ولد، إيه رأيك يا عيشة؟ لم أرد عليه. أنت لا تملك ما تقدمه لي سوى جلابية تحرص على أن تكون نظيفة في كل الأوقات، ووجه أبيض كبير، وقلب فارغ، وعقل أكثر فراغًا من القلب، وجسم في قوة الثور، تعيش على أمل غامض، أكثر غموضًا من الحياة نفسها، هذا الأمل إحدى نزوات العمر وهي كثيرة، قلت له: رأيي في إيه يا زهران؟ سألني في رقة: يعني مش عارفة؟ نفث حسن ضيقه الذي لا

يملك سواه بقوله: يا أخي روح وكـل نفسك الأول، هدده زهران، لولاك ماشي مع عيشة لضربتك، لا أحبك يا زهران، لا أعرف عن الحب الذي تتحدث عنه أي شيء، أسمع عنك أنك تعمل في أمور غير مشروعة كقتل الناس، وسرقة المواشي، وحرق الزرع، شاهدتك في الأسبوع الماضي خارجًا من منزل سكينة ساعة الفجر، قال بعجز: سايباني كده يا عيشة، سأله حسن: عايز منها إيه؟ طيب روح لأبوها، وهو يرحلك من البلد، قال من أعماق العجز: عيشة، لم أرد عليه، لا أحبك يا زهران، ما أطلبه يصل إلى درجة الاستحالة، أنت لا تقدر عليه، بكل الممكنات في حياتي طلبًا للمستحيل، قال زهران، أنا بحبك يا عيشة، أنا مش عاطل، أنا مستعد أشتغل، في الأعماق جرح ينزف، الناس تقول علينا إيه يا زهران، نفدت الدماء من جراحي، هو الحب عيب يا عيشة؟ قال حسن في ثورة: أيوه عيب يا نطع، الذين يتدلون إلى أعماق اليأس القاتل يفعلون أي شيء، عيشة: أنا منتظرك ما حدش حايخدك غيري، أي حد يطلب إيدك يموت تاني يوم على طول، قالها زهران بسرعة، كسرعة طلقات البندقية التي تثبت وجوده في قريتنا، وتجبر الكثيرين على

احترامه، قالها وانطلق، عملاقًا ضخمًا، وابتلعه الظلام في جوفه وغاص فيه، قال حسن: الواد ده مش راجع إلى إذا أتربى، فيه رجولة، رأيك فيه إيه يا حسن؟. انزعج حسن من السؤال، كأن زهران غير جدير بالسؤال عنه، دا قتال قتلة، دا مش بني آدم، كنا قد وصلنا إلى المسجد سيدي تاج الدين، بسم الله الرحمن الرحيم شي لله يا أهل الله.

* * *

ـ يا حبة عيني عليك، يا أعز حبيب.

يا حبة عيني على جسمك اللي فاحت منه رائحة كريهة تهب على البلدة كلما هبت عليها الرياح ساعة الغروب، لو كان بيدي يا أعز حبيب، لغزلت لك من جسمي كفنا يسترك، لو عرفت من الذي قتلك، لذهبت إليه، ومزقته بأظافري، اطمئن يا أبي فوق الساقية، وتحت شجرة الصفصاف التي تبكي عليك في كل لحظة. تبكي دمًا أحمر تبيعه للترعة التي تجري من تحتها في لا مبالاة، تبيعها إياه بلا مقابل.

قبل خروجه إلى الحقل في تلك الليلة الحزينة، نظر إلي، كنت نائمة في حجرتي، لم يتكلم، تحرك وخلفه حسن

الأعرج والجاموسة والبقرة، لا بد وأنك كنت تعرف أنك لن تعود في هذه الليلة، لأول مرة أشعر أنك قد تقدمت في السن، تزوجت متأخرًا، لا أحب زهران، ولكن أود أن أعرف من أين يعيش هذا المجرم؟ حسن الأعرج يحبني، وإن كان لم يصرح بذلك، هذا شيء واضح في جميع تصرفاته، زهران يذهب إلى سكينة في بعض الليالي. لم أغضب منها، أشفق عليها، أن الذين يبيعون أشياءهم في أمس الحاجة إليها كي يواصلوا الحياة مساكين، لا يستحقون منا إلا الرثاء لهم، كنت قنوعًا في كل شيء، لم تنجب سوانا أنا وحامد، شيء نادر الحدوث في بلدنا لم لم تنجب آخرين يؤنسون وحشة الحياة؟ عندما عرضوا عليك عمدية البلدة، رفضت ذلك، وليت أحد أقاربك، عظمة الإنسان في هذه الدنيا تقاس بالأشياء التي يمكنه الاستغناء عنها، قلقت أمي في هذه الليلة السوداء، كان زهران يلاحقني في كل مكان، لم أخبرك بشيء، حدثت بالأمس مشادة بيني وبين سكينة، لم تكرهني هذه المرأة؟ أحتقرها، لم أظهر لها ذلك، تركتها تمارس في الخفاء ودون أن تعلم أنت كل ما كانت تحب أن تمارسه، فتحي زميل حامد حدثه بخصوصي، حامد لم يجرؤ على مفاتحتك في الأمر،

سافرا معًا إلى دمنهور، دفنت الأمل الغامض، فـــي مقبـــرة سحيقة، كبرت، أنا في التاسعة عشرة من عمر، هذه المشكلة لا تشغل بالي. أحن إلى الرجل، لدرجة الوله والجنون، لقـــد كان من الخطأ أن لا أخبرك بكل هذه الأمور.

* * *

ــ يا حبة عيني عليك.

يا أعز حبيب.

* * *

مين اللي قتل أبويا يا حسن؟ كانت دارنـــا مظلمـــة. ذهب نورها بذهاب رجلها، في الظـــلام العميـــق لا يملـــك الإنسان إلا أن يغوص في أعماق ذاته. خراب يا دارنا حتى تأخذ بثأر الحاج منصور أبو الليل، لم ألمح ســـوى الرعـــب والخوف في وجهه وسط الظلام، والله ما أعرف يـــا ســـتي عيشة، قلت له: أنت مش كنت معاه في الغيط؟ لازم تعرف، ابتعد عني قليلاً، أنا كنت قدام المية، هو كان عنـــد الســـاقية بيسوق الجاموسة، لا بد وأنك تعرف، وسيدي الحـــاج تـــاج الدين ما أعرف، ورحمة أبويا الحاج منصور، صحت فيـــه: اخرس، هل انتهى الحاج منصور أبو الليل؟ مـــات؟ أصـــبح

يمينًا يحلف به حسن، وغيره؟ لا، لم يمت، هل دفن؟ لم يدفن، لن يدفن، حتى أصل إلى السر، اسمع يا حسن لو ما قلتش ع القاتل، يبقى أنت اللي قتلته، احتمى حسن بالصمت، لازم تتكلم، أنا أموت أبويا الحاج منصور؟ لم يكن بالبلدة كلها من يستطيع الوقوف أمامه، كان له سلطان على كل الناس هنا، تناهى إلى صوت حسن، نفسي أعرفه وأنا أشرب من دمه، الحاج منصور والدي، أبو البلد كلها، أنا عايز، نفسي أعرف، مش قادر، بلدتنا بعد الحاج منصور تبدو كاليتيم.

* * *

ـ لا..

ـ لن تدفنوه أبدًا.

ـ لن يوارى في التراب حتى نأخذ بثأره أولاً.

* * *

أصبحت المصطبة كمقبرة موحشة، الحارة أضحت كئيبة الشكل، لن أعتمد على أحد غريب، عظمة الإنسان في أن يكون وحيدًا. مبروك النجاح يا عيشة، لن يأخذ بالثأر سوى حامد، ولكن ممن؟ الله يبارك فيك يا با.. لا شيء له قيمة. قال حامد: ناويه تكملي تعليمك؟ الذين كانوا ينتظرون

خروجك بالسعات ابتعدوا عنا. قال والدي بحدة: اخرس. أنت وحسن الأعرج اللذان تعرفان السر. تطلعت إلى وجه والدي. غضب من السؤال. لا أملك أن أقرر هذا. القرار متروك لك يا والدي، أنا قصدي. أكمل يا والدي، عيشة لازم تقعد في البيت، كفاية على كدا، لا بد من هذا السجن الأبدي وإن طال العذاب، كل شيء مكرر، سأنفذ هذا الحكم حتى يحضر العريس، خلف هذه الأبواب لا يراني أحد، قال والدي كمن يقرر أمرًا: هيه كلمة واحدة، كفاية على كدا، ارحمني من هذه الشكوك يا رب. أشك في كل الناس، حتى حسن الأعرج، أشك في نفسي أحيانًا كثيرة، عند طرح السؤال، من القاتل؟ لا أجد سوى كتل الصمت ومساحات الفراغ. استدار إلى حامد، في عينيه حيرة، رأيك إيه يا عيشة؟ بعض الناس يتحدثون عني، زملائي من الصبيان والذين أكملوا تعليمهم يتحدثون بلغات أخرى، لا أفهم منهم حرفًا واحدًا، هيه عيشة لها رأي؟ أنت مالك خرع كدا، بقى أنت راجل، رغم كل هذا أحبك، حرمتني نعمة التعليم، أحبك، قسوت علي، أحبك، لم تحاول أن تفهمني، أحبك، تركتني ذليلة، واحدة من الحريم، أحبك، والله ما حد عارف نصيبه فين، قالتها أمي، التسليم

بكل شيء يبدو سخرية، نحن لا نملك سوى هذا، لا أستطيع أن أقول لا، والحب أعجب ما تخفق به القلوب.

* * *

العمل الوحيد المشرف هو أن نثأر له، والنبي دي مصيبة، لم تتحدثين بهذا الهدوء يا أماه؟ هذا الحديث يوحي بأن الذي قتل شخص آخر غير والدي. دي أكثر من مصيبة يا أمه، المهم دلوقت ح نعمل إيه؟ قالت أمي، وإحنا نقدر نعمل أي حاجة، ألم تشمي الرائحة التي تهب على منزلنا ساعة الغروب من كل يوم؟ ألم تشعري بالريح تصفر في حارتنا الخالية من كل شيء حتى من العواطف؟ منزلنا أضحى كمنزل هجره أهله، نحن بدونه لا شيء، ألم تشمي رائحة الحزن وهو يعشش في منزلنا، لقد أفرخ الحزن فعل كل شيء. قالت والله ما نقدر دا بس كلام، صحت من أعماق اليأس، نقدر نعمل المستحيل، تعملي إيه يا عيشة؟ سكت، معذرة يا أماه، كلمات بسيطة تعلمتها أيام المدرسة، المستحيل، اليأس، أيام المدرسة أيام مجد وعز ولت ولن تعود، ليتها دامت، ليت الزمان كان قد توقف عندها ولم

يتحرك آه لو تعود يا أبي؟ يا أعز حبيب، لكن ذلـــك أيضًـــا مستحيل.

* * *

أبوكي ح يميل بختك. لا أحد يدرك مطالبي بالتحديد، حتى أنت لم تفهمي ما أطلبه، قصدك إيه؟ قالت أمـــي فـــي حزن مبطن بالخوف من المستقبل أنت فاهمة قصـــدي، مـــا أطلبه عسير المنال، لن أغير وجه الكـــون، ولكنـــه شـــيء مستحيل التحقيق، ألف شخص تقدموا لك يا عيشة، هل كـــان من الضروري أن نرفضهم؟ كل الذين تقدموا لي لـــم أقتنـــع بواحد منهم. لا أفهم مقصدك. ما قيمة أن أصل إلى الخامسة والعشرين بلا زواج، كان من المفروض أن يكون معك أولاد الآن يا عيشة، لقد كبرت، لا أرغب في الزواج الآن، أحـــن إلى الرجل، ضحكة فيها رجولة تدغدغ حواسي أيامًا، هـــذا المنزل لن يدوم لك يا عيشة، كل ما أطلبه أن أظـــل قريبـــة منه، ابتسامته أعلى ما في الوجود.

* * *

نمت الليلة نومًا متقطعًا، عندما صحوت من نـــومي، كان بالحجرة شريط من الضوء الشاحب، كانت أمـــي إلـــى

جواري، ما هو الشيء غير الممكن، كانا يقتلانه بلا رحمة، لا شيء يا أماه، كان الرجل والمرأة يعتديان عليـــه، لـــم أدر سبب الاعتداء، رغم اليأس البادي على وجهك كنـــت تقـــاوم مقاومة الرجال. إزاي يا عيشة؟ حاولت أن أجـــري نحـــوه، كنت مربوطة بقيود غير مرئية، كتل من العجز، كميات من اليأس، أبعدتني عنه، حتى أنت لم تطلب العون، كنت باحلم، كان والدي يقاوم شخصين يعتديان عليه، بتحلمي إزاي؟ أنتي كنت بتتكلمي، امرأة ورجل، لمحت وجهـــه وســـط الظـــلام والضباب، النوم سلطان يا أمي، كان الحاج منصور أبو الليل سلطان زمانه، قبل أن أنام فكرت فيك، بالقرب مني صـــورة كبيرة لك، وأنت في صدر الشباب، حين أغمضـــت عينـــي كانت صورتك آخر ما شاهدته، لازم فيه شيء مخبياه، الذي شاهدته فظيع، لن أقول لك شيئًا، نامي أنت، انتهى كل شيء. هجرت النوم والأحلام، نامي أنت، كل شيء على ما يرام يا أماه، من الشخص الذي كان معك؟ كان يجب أن أعرفه، مـــا معنى كل هذا؟ يمكنك أن تنصرفي إلى أمورك الخاصة، فكل شيء جميل، يا حبة عيني عليك يا أعز حبيب.

كان جالسًا عقب العشاء، بعض الأنوار الباهتة تفرش المكان، ما من مرة أنظر إليك حتى أحبك من جديد، حبًا فيه كل بكارة الحب الأول، هل تعرفين من الذي طلبك مني اليوم يا عيشة؟ لم أرد، قصة اعتدت سماعها كل يوم، اعتـــدت أن أسمع بعدها قراره بالرفض؟. زهران؟ خبطت أمي صـــدرها في فزع، يا ندامتي زهران؟! نظرت إليَّ، في نظراتها شك، أعرف ما يقف خلف عينيك، الذي يدور فـــي رأســـك، أنـــا عيشة؟!. عيشة منصور أبو الليل؟!، طالـــب إيـــد عيشـــة؟! ضحك أبي، قالت أمي بنفس الدهشة، عملت إيـــه معـــاه؟ رد أبي: عملت إيه؟ أنا قلت له لو شفته في البلد ح أرحله. هيه ح تصوم تصوم وتفطر على بصلة؟ كنت تحب: عنـــدما قـــرر والدك أن يغتال هذا الحب، جعل عيشة وأهلها يرحلون عـــن بلدتنا، بنفس الطريقة تفكر يا والدي، لوت أمي بوزها: أنـــا باحسب، ثم في كلمات ممطوطة: الواد أصله مش كـــويس، مهدد الحتة كلها، وإحنا لنا مصالح، ظهر الشر علـــى وجـــه أبي، أوعي تقولي الكلام ده تاني، أحبك يا أبي، أحـــب فيـــك هذه الرجولة الفياضة، من يكون هذا المجرم حتـــى يطلبنـــي

منك؟ لا بد وأنك قد عرفته، من يكون بالنسبة إليك يا أرجل الرجال.

* * *

لا أكرهك يا سكينة ولا أحبك، حياتك سر من الأسرار، أود أن أعرف ما يجري خلف هذا الباب الموصد، لا تقبلي أن تسمعي سيرتي على أي لسان، لا أحب زهران، لا أعرف الغيرة منك. كثير من رجال بلدتنا يدخلون عندك بالليل بعضهم يخرج والبعض الآخر يبقى حتى الصباح، عندما كنت صغيرة كنت أرى باب منزلك مزينًا برسومات، رجل فارس عملاق، رجل حقيقي. يركب حصانًا ويمسك سيفًا. شنبه يقف عليه الصقر. كنت أعتقد أن هذا العملاق مرسوم كي يحميك من ظلام الليل، والليل مقبرتنا، بل كنت أعتقد أن هناك علاقة ما بينك ــ وأنت أجمل من رأيت وأنا صغيرة ــ وبينه وهو الرجل الحقيقي بعدك يا أبي. أتضح لي أن هذا الفارس ولا حتى عشرة فرسان آخرين بقادرين على القيام بهذه المهمة. كنت تخافين أبي بمجرد أن تشاهديه تجرين إلى داخل منزلك. وإذا التقيت به خلعت حذاءك ولففت يدك بطرف الطرحة السوداء، نكست عينيك إلى الأرض.

وانهلت على يديه تقبيلاً. وهو يدعو لك بالتوفيق والستر. لن أكرهك. ليذهب إليك زهران. لن أحبك، ليذهب إليك حسن الأعرج. لن أكرهك. ليذهب إليك كل من هب ودب. في الأعماق نار تكويني في كل لحظة تمر. الستر مطلب الجميع. الحرام سيف مسلط على الرقاب، لن أحبك، لن أكرهك.

* * *

المكان مظلم رغم أننا نسكن في حارة واحدة، هذه هي المرة الأولى التي أدخل فيها هذا المنزل، القوة وحدها هي القادرة على أن تريح والدي حيث هو، صافحته دون أن أقبل يده المعروقة الناعمة، لا بد من معرفة القاتل أولاً، استغرب هذا التصرف مني. ما قيمة كل شيء ما دام الحاج منصور أبو الليل قد ذهب، لا أؤمن بمثل هذه الأعاجيب، ذهب الحاج منصور أبو الليل يا شجرة الدموع، حتى والدي لم أكن أقبل يديه، لن تفلح دموعك في أن تبدد الرائحة العفنة من حوله، كنت أحتويه بنظراتي، ذهب الحاج منصور أبو الليل، لا بد وأن هناك أيامًا قادمة من الحداد، كنت أضعه تحت رموش العين. ابك ما شئت، خير يا ست عيشة؟ الله

يرحمه أبوكي، لم يدفن بعد، انثـري أحزانـك علـى دوار الساقية. في عينيك نظرة شماتة، قدمي دموعك على طبق من الفضة لمياه الترعة التي تجري بلا مبالاة، لم تنظر إليَّ هذه النظرة الميتة؟ لست طالبـة حـب، لا الـدموع، ولا حتـى الأحزان، بقادرة على البقاء إلى جوارك، لم أحضر هنا لأكيد لضرتي أو أسأل عن السبب في هجر الحبيب، أنت وحـدك هناك يا أعز حبيب، كان راجل ولا كـل الرجـال، تقولهـا بطرف لسانك فقط، تكره والدي، تكرهني، تكره حتى جدران منزلنا، تحب أن تخلو لك الحارة أنـت وسـكينة، الرجـال نادرون في هذا الزمان، يا ست عيشة، كلمة صادقة ولكنهـا ليست نابعة منك، يضع في عينيه كحلاً أسـمر كمـا تفعـل النساء في ليالي الشقاء والرغبة، يا صنو الحربـاء، اسـتدار إليَّ، المرة الأولى التي أراه فيها عن قرب ذقنه منسقة بعناية، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ ﴾، قلت لـه: دلني يا با الشيخ مسعود، اسعفني يا صبر أيـوب، يـا كـل الصبر، قلت بإصرار مين اللي قتل أبويا؟ تمتم بكلام غيـر واضح، نظر إلى السقف، صمت، نظر في كل اتجـاه كمـن يخاطب أناسًا لا نعرفهم، راح ينصت إليَّ متحدث وهمي، لا

شيء سوى الصمت الأخرس، الموضوع صعب وعويص، لم أرد عليه، سلسلة من المساومات، طلبات الأستاذ، لا أؤمن بك، أكرهك، رغبتي في معرفة القاتل هي التي دفعتني إليك، قل ما تريده، قال بصوت بطيء: الصبر يا ابن آدم، كلمات تقولها لكل من يشرف هنا، استعنت بصبر أيوب، ولكنه نفد يا شيخ مسعور، ناولته ما طلبه مني، استأذن قليلاً، آه لو أعف القاتل، أبوكي كان له أعداء كثير، انتفضت واقفة، ماذا يعني قوله هذا؟ ودا يخلي معرفة القاتل أمر صعب، اكشف عما تطلبه بلا لف ولا دوران، اطلب مزيدًا من المال إن شئت، سأعطيك ما تطلبه، لا بد وأن أعرف، قال بصوت هامس: أوعي تنسي أنه أتعارك مع زهران بسببك. زهران؟! كيف هذا؟ أصبح صوته أكثر همسًا، حسن الأعرج له في الميراث، إنه ليس أخي، قال بوضوح كالح: أنت لست صغيرة، أبوكي خلفه من بنت غرباوية اسمها عيشة، لعنة الله عليك يا شيخ مسعود، حسن الأعرج..! كيف هذا؟

ــ أنا حامل يا منصور.

كان والدي شفق عليه في بعض الأحيان، لم يرفعه إلى مرتبة الأبناء.

ـــ وح أعمل إيه يا عيشة؟ أبويا موش راضي..

حسن نفسه لم يحاول الحصول على هذه المرتبة، قال لي مرة أحبك، كنا معًا في الزريبة. والعمل يا منصور؟ كان يفك رباط الجاموسة. مع أول تباشير الصباح كي يذهب إلى الحقل عندما سمعت منه هذه الكلمات التي لا تعني شيئًا، على وجهه بقايا نوم. يصحو مبكرًا، نظرت إليه نظرة أوقفته عند حده، من بعدها لم تصبح عنده وسيلة للتعبير سوى نظراته الخرساء، تحمل حبه وعجزه وضياعه.

ـــ والله ما أنا عارف! ح أكلم أبويا الليلة.

هل يفعلها حسن الأعرج؟ محال أن يحدث هذا.

ـــ أنت طول عمرك راجل يا منصور.

لم أسمع هذا التاريخ السري إلا بعد أن قتل الحاج منصور أبو الليل.

ـــ أنت كل اللي ليا يا عيشة، بلدنا عمرها ما تعترف بهذا الكلام، الحب عذاب، والهجر عذاب، لازم تخليها تعترف، اللقاء أمنية عزيزة المنال، والهجران حل سهل، من المستحيل تنفيذه سيرحلني والدك عن البلدة يا منصور مع أول شعاع في الغد.

قال الشيخ مسعود: ثم إن البلد يا عيشة داخلة على انتخابات الاتحاد الاشتراكي، ضحكت من سذاجته، والذي ليست له أطماع سياسية، هذا مجرد كلام، تلك مراوغات منك يا شيخ مسعود، الله أعلم ورسوله والمؤمنون، ولفي عليهم يا سيدي الشيخ مسعود، قلت له بصراحة: دلني ولك الحلاوة، تساءل في خبث: وبعدما تعرفني؟ انتشلتني عبارته من أعماق اليأس، هل تعرف القاتل حقًا؟ قلت له بتصميم: أموته، تساءل: والحكومة؟ تساءلت بدوري بيني وبين نفسي: ماذا تقصد يا فضيلة الشيخ بالحكومة؟ حدد كلماتك، هل تعني العمدة؟ أو رئيس مجلس القرية؟ أو الاتحاد الاشتراكي؟ ماذا سيفعلون لي؟ من مات قد مات، ولا وقت عندهم لمثل هذه الأمور، إنهم مشغولون بما هو أهم من الذي حدث، اللي حا تعمليه مش حا يقدم ولا حا يأخر.

ــ كيف؟ اللي مات مات، ما مصلحة إلا مصلحة الحي، روحي ادفنيه أحسن.

ــ لم أحضر إليك كي أسمع هذه النصيحة، أنا أعرف ما يجب عمله، لو سمعت منك مزيدًا من النصائح، أو طلبت مزيدًا من المال، لقذفتك بالقلة الموجودة إلى جواري،

اخرس يا شيخ مسعود، كان والدي عنده الحق فـــي القســـوة على أمثالك، في نظراتك شيء جديد يلمع، هنيئًا لك بمفردك مع عيشة بنت الحاج منصور أبو الليل حضـــرت لـــك فـــي منزلك، كنت تقرأ الفاتحة في أثناء مرورك أمام منزلنا، قـــل لي، احترت، لم أعد أطلب مزيدًا مـــن الحيـــرة والأوهـــام، أغمض عينيه: لا يعلم الغيب إلا الله يا شيخ مســـعود، قـــال بدلال مقزز: صارحيني يمكن أدلك، اقترب مني وفي عينيـــه بريق غريب، أصارحك بأي شيء. فـــي الأعمـــاق جـــرح ينزف، أصارحك بماذا؟ أنا عيشة منصور، عبرت صحاري الأوهام إليك، أمسكت بخناقه، أتمنى أن يعطيني الله القوة كي أطهر العالم من كل الأقذار، وارتعد في خوف، لـــم ينطـــق. لابد وأن تقول لي، قال في بساطة: ما أنا قلت، أنتـــي اللـــي بتحبي، ماذا تقصد؟ أقصد زهران، لم يحضر إلى حارتنا منذ أن طرده والدي، عندما ذهبت في الأسبوع الماضـــي إلـــى الجامع لم يكن ينتظرني في الشارع كعادته، لم تصـــل إلـــى أذني آهاته مع بكاء الساقية، لم أعد أسمع طلقـــات بندقيتـــه تخترق الظلام، وتخدش الصمت، أين ذهبـــت يـــا زهـــران؟ حلمت ذات ليلة أن أمي القاتلة، وها أنت تقول لي أنه زهران

مرة، وحسن الأعرج مرة أخرى، عندما خرجت من منـــزل الشيخ مسعود كان الظلام قد سقط على كـــل شـــيء، بـــدت الحارة كمدخل قبر لم يدفن به أحد، الحارة خاليـــة، صـــفير الرياح كنعي دائم للحياة، سكينة تجلس أمام منزلها، عنـــدما شاهدتني ضحكت ضحكة اهتز لها جسدها الجميل، انغرست الضحكة العاهرة في ظهري كخنجر، بعد قليل يبدأ عملك يـــا سكينة، يا عيني على اللي حب ولا طالشي، الحداد، عندي ما هو أهم منك، لم أنظر إليها، لو استدرت إليك لمزقتك، فـــي الصيف الماضي قلت أن حامد أخي ليس رجـــلاً، تحـــاولين التعرض لي، اشمتي، منذ شهر زعمت أن أبي ذهب إليـــك، ذات ليلة لم يشرق قمرها، وأنه خرج من عندك كما دخل.

* * *

يا أرحم الراحمين، لا يمكن أن يحدث هذا، لا يمكن، حضر الطبيب الشرعي، لم يزل والدي راقدًا تحـــت شـــجرة الصفصاف، دي إجراءات لا بد منها، صحت فيه: دا حرام، قال بابتسامة: لا بد، كان يبدو عليه تصميم، أي لا بد هـــذه، كنت أود أن أسمعها منك كنوع من التصميم علـــى معرفـــة القاتل والانتقام منه، أكرهكم جميعًا، أكره نفسي، لـــن أقـــف

مكتوفة اليدين، أنت مش يهمك معرفة القاتل؟ خرج صـــوتي كالفحيح: من هو؟ قال: التشريح هيوضح سبب الوفاة، خيـــب الله أملك، قال مواصلاً كلامه: وعن طريق سبب الوفاة نقدر نوصف للقاتل، قلت كمن أمسك بأمل وسط الزيف: إنما مؤكد يتعرف القاتل؟ وضع على شفتيه ابتســـامة لزجـــة: لا مـــش مؤكد، إنما المؤكد معرفة سبب الوفاة، ألقيت الكلمـــات، دون رغبة في مواصلة الحديث، وبعد معرفة القاتـــل إجـــراءات طويلة بعد كده، طار صوابي، شاهدت الطبيب يتجـــه إلـــى الجثة، لن يحدث هذا، أوعي يا بنت الراجل شبع موت مـــن زمان، حتى أنت يا حلاق الصحة، تود أن تنتقم من ســـيدك، في العام الماضي هجرتك زوجتك، قالت إنك عـــاجز، منـــذ عالم تقترب منها، شاهدتك بنفسي وأنت تقبل طـــرف ثـــوب والدي، تقسم له أنك رجل، وأنك مستعد أن تمارس معها مـــا تطلبه أمام والدي، ضحك الرجل العظـــيم، طلـــب منـــك أن تذهب إلى منزلك، ذهبت إليك زوجتك في اليوم التالي، رحت يا كلب يا حلاق الكلاب، تقبل طرف ثوبه، عنـــدما زجـــرك رحت تجري في الطريق، عندما ابتعدت كنت أتســـاءل هـــل

تدعو له، أو عليه؟ الطبيب يتقدم خطوة أخرى، خلفه الحلاق، لا.

لن تدفنوه أبدًا، لن يتم تشريح جثتك، ستسيل الدماء كي تروي شجرة الدموع، لن أقف مكتوفة اليدين، هجمت على الطبيب، كل ذرة من كياني تقول لا، ضربته، ضربت حلاق الصحة، حملوني بعيدًا، لم يستطع أحد منكم أن يرفع فيه عينًا من قبل، لا، أنتم شامتون، تمارسون ضده ـ وهو سيدكم جميعًا ـ نوعًا من التمرد العاجز، لا لم أشاهد شيئًا، أشبعتهم ضربًا، أغمي عليَّ، تداخلت الأصوات والمرئيات، كم كرهتك في هذه اللحظة يا أماه، قل على الدنيا السلام، من أين تحضرين كل هذا الهدوء، إن كان ما شاهدته بالأمس صحيحًا فاسعفيني يا شجرة الدموع، أبكي اليوم دمًا أحمر قانيًا، لم يبق لدي دمعة واحدة، أنا أنزف من الداخل، لا تغضب يا أبي، حامد وهو رجلنا من بعدك، غير موجود معنا، يطلب العلم وأشياء أخرى في البندر، فعلت كل ما أقدر عليه، حملوني بعيدًا عنك بالقوة، كان أهون عليَّ أن أقطع بدلاً منك، أو أن أقطع معك، ويعذبونني بالحياة، ومواصلة الحياة بعدك عذاب مستمر يا والدي.

ـــ يا حبة عيني عليك.

ـــ يا أعز حبيب.

* * *

ـــ اسمك؟

ـــ عيشة منصور أبو الليل.

ـــ عمرك؟

ـــ ١٩ سنة.

ـــ عنوانك؟

ـــ الضهرية ـــ مركز إيتاي البارود ـــ بحيرة.

ـــ شوفي يا عيشة. أنتي كنت أقرب الناس للمرحوم، وعلشان كده كلامك ح يكون له أهمية طبعًا في التحقيق.

ـــ طبعًا.

ـــ أنتي يهمك قبل أي واحد أنك تعرفي مين اللي قتل الحاج. وكمان تعرفي التصرف اللي اتخذ معاه.

ـــ ده مهم جدًا.

حبي لك أقوى من كل شيء يا أبي.

ـــ كان لوالدك أعداء؟

ـــ ما كانش حد يقدر يعلن عداءه.

ــ قصدي.

مسح جسدي بنظرات لزجة، هو عمره ما قالشي لك أن فيه حد بيعاديه؟ قلت كلمات أعيها ربما كان هنـــاك مـــن يكرهه، لكنه لم يكن هناك من يجرؤ على الاخـــتلاف معـــه، تساءل الضابط: أرجوكي دا تحقيق، ماذا تقصد؟ قصدي أنك تقرر حقائق. تاهت حقيقة كل شـــيء. أرجـــوكي حاجـــات حصلت، وقائع محددة. مأساتي، أو مصدر متـــاعبي أننـــي أؤمن به أكثر من اللازم، كان منزها عن كل شيء، لم يكـــن يصل إليه أحد، في بلدتنا آلاف الشائعات عنه وعن علاقاته، لن أصدق حرفًا واحدًا مما تقولون يا أهل السوء. نبـــدأ مـــع بعض يا ست عيشة، على أساس من الصراحة يمكن نقـــدر نوصل لحاجة، وقف قبالتي، حصل إيه قبل مـــا المرحـــوم، تكرر كلمة المرحوم، لا، لن أضعف أمامك، استدرت إليـــه، واجهته بنظرات ثابتة، كان الحاج منصور جدارًا يمنع عنـــي كل هذا، وكان، وكان، حصل أن زهران الرفاعي طلب إيدك من والدك؟ لا أعرف، والدك ما قالشي لك؟ سمعته يتحـــدث، أضعت كل الإمكانيات في حياتي طلبًا للمستحيل، كـــان إيـــه ردك؟ القصة قديمة نعرف كـــل تفاصـــيلها، لا تســـتحق أن

تروى، حكى لي والدي الحكاية كنوع من سمر الجزء الأول من ليلنا الأسود، وهو يسحب نفسًا من سيجارة غليظـــة، لـــم يكن يسألني عن رأيي، أمال كان بيقول ليه؟ مجـــرد حكايـــة بسيطة نغوص بها إلى أعماق ليل طويل مظلم، يحلو لنا فيه السمر، والحكاية بلا هدف واضح، وحسن الأعرج شفتيه يـــا عيشة يوم ما كان خارج من المرحوم؟ قلت بلا رغبـــة فـــي مواصلة الحديث: لم يكن في ملامحه شيء جديد، كان والدي قد خرج ليلتها، وقف حسن الأعرج قبالة الحجرة التي أجلس فيها. في يده اليمنى حبلان ينتهي أحدهما بالجاموســـة أمـــا الآخر فينتهي ببقرة اشتريناها من آخر سوق ثلاث مر بنـــا، على رأسه منديل محلاوي كبير، ففي يده اليسرى منديل آخر بهت من كثرة الاستعمال. تاهـــت معالمـــه يفعـــل الزمـــان واستعمله لحمل الطعام فيه. وبباقي أصابع يده كان يسند فأسًا وضعها على كتفه اليسرى، مساء الخير يا ست الكل، نظرت إليه، إلى ثوبه الممزق كحكاية الحياة معه، لم أرد عليه، مـــا إن أمد له حبل الحديث حتى يمسك به بنجاح ويطيل الحديث. الكلمات قديمة، معادة، ستقول لي أحبك، ستطلق الكلمة فـــي الفراغ كعواطف العاجزين، ستقول أنك تعمل عنـــد والـــدي

بسببي أنا، تصبحي على خير يا ست الناس، قلــت بتصــميم أقرب إلى المداعبة: أنا اسمي عيشة يا حســن. رد بفــرح: عاشت الأسامي. هم بأن يتحرك لولا البقرة والجاموسة لدخل الحجرة، وجلس إلى جواري وسكت، قال وهو يوهمني بأنــه خارج: تصبحي على.. قلــت وابتســامة حزينــة كالــدموع الصامتة ترف على شفتي: وأنت من أهله، تحرك، ظهر ظله على الجدار المقابل. الفأس على كتفه. ظل ربطــة المنــديل المحلاوي يبدو كعقدة بلا حل. من خلفه بدا الحبلان يشــدانه إلى الخلف كالمصير. قال الضــابط بعــد فتــرة صــمت: صارحيني يا عيشة. لم أسمع تهديد زهران لوالــدي. لــف الزيف كل شيء، حتى آخر مرة وصلك لغاية ســيدي تــاج الدين، أمتى؟ لم أرد عليه، ستطول أيام الحداد. يتحدثون عنك وعن ابنتك بعد أن ذهبت عنا يا سيد الرجال، ما فــيش حــد تشكي فيه؟ قلت وأنا أهم بالنهوض، لا أعرف، ظهرت على وجهه علامات الحيرة، لم أفده بأية معلومات تفيده، الســاقية عندها عفريت، لا أعرف عن هذا الموضوع الشيء الكثيــر، عفريت عبده الذي قتل من زمن، تهون الحياة بكل مســراتها في سبيل أن أعرف قاتلك يا والدي، والأرض أرض عبــده،

قال الضابط، لا بد من معاينة مكان الحادث، تحرك الضابط، وتحرك الركب من خلفه، توقف فجأة، بوقفته توقف الركب المتحرك، قال لكاتب التحقيق، ابعث في طلب الطبيب الشرعي، حركة حائرة ككل ما حولنا، الحاج منصور أبو الليل هو السبب في قتل عبده، أخذ الأرض لنفسه، ولكنه مات. لم يترك سوى عيشة وحامد أحد الأفندية، آمنا بك يا رب، لا أسمع سوى كلمات التشفي.

ـ يمهل ولا يهمل.

ـ حد كان يقدر يقف قدام العفريت.

* * *

ما هو الحل يا أماه؟ استدارت إليَّ، الشيء الوحيد الحزين فيك هو جلبابك الأسود، كل شيء آخر فيك لا أثر فيه للأحزان. كأنما الذي مزقت أعضاؤه ليس بزوجك، أي حل يا عيشة؟ جاء تقرير الطبيب الشرعي مخيبًا للآمال، ضغط غير عادي على الرقبة، بصمات اليد التي خنقته غير واضحة المعالم، كان لسانه بارزًا، عيناه جاحظتين، آثار الخنق تحيط بالرقبة، من الذي قتله؟ لا يوجد بالجثة ما يدل على أنه كانت هناك مقاومة تذكر من جانب القتيل، إذا لا

توجد إصابات أخرى بالجسم، لا بـــد وأن نعـــرف القاتـــل، سرداب لا نهائي من العذاب والحيرة. وحتى لو عرفنا، ماذا سنفعل بعد ذلك؟ سنأخذ بثأره؟ قد يطول الحداد، قد يمتد إلى آخر أيام العمر الحزين، لا أمل، تقريـــر الطـــب الشـــرعي أخرس، لم يقل شيئًا، يا عباد الله. توفي اليوم إلى رحمـــة الله تعالى، من الذي سيأخذ بالثأر، أنا أم حامد، أم أنت، أم حسن الأعرج؟ زهران حبيب القلب، ليس هذا وقت السخرية منـــي يا أماه، مضغت غيظي في ألم، ابنه هو الذي سيأخذ بثـــأره، ابنه من؟ حامد، حامد منصور أبو الليل، ما قيمة حياة ذليلة، المسألة أصبحت حياة أو موتًا، ألا تدركين من الـــذي قتـــل؟ الحاج منصور أبو الليل، ألا تعرفين ما معنى هـــذا؟ حســـن صامت، انقطع زهران عن حارتنا، الفارس المرسوم علـــى منزل سكينة لم يتمكن من حمايتها، حلق شنبه، كسر ســـيفه، أعلن الاستسلام لليل الصمت، وخيمة الظلام. الليـــل أبـــدي كالموت عميق كالضياع، وفتحي أضحى أحد المستحيلات في حياتي، الحارة كـــالقبر، المصـــطبة كـــالمنزل المهجـــور. والحكومة لن تفعل شيئًا، يفرق بين العمدة ورئـــيس القريـــة وأعضاء الاتحاد الاشتراكي أمور كثيرة، ولكن يجمع بيـــنهم

الكراهية العميقة لوالدي، والذي يشكو للعمدة ضعيف، الذي لم يقدر على أخذ حقه بيده، قالها لنا والدي. سمعتها منه مرة، لن نذهب إلى أحد منهم. نصائح الشيخ مسعود تبدو كحكمة بالية، ليفعلوا إجراءاتهم العقيمة، لن يصلوا إلى أي شيء، لن أعتمد على أي منهم، سأرسل في طلب حامد، لا بد وأن يقوم بنفسه بكل شيء، هذا شرف لا يجب أن يقوم به أحد سواه. لو توانى حامد لحظة واحدة الموت أهون من أي شيء آخر. هناك أمور لا تباع ولا تشترى. الشرف والكرامة وعزة الإنسان. هي رأسمالنا في الحياة، لو بددناها ونحن قادرون على هذا. لما وجدنا ما نواصل من أجله الحياة. لا بد من الثأر له. لا بد وأن نعرف القاتل. لن أذهب إلى دوار العمدة. سينطلق حامد، سيثأر له، لو أتجوزت يا عيشة؟. قالتها أمي، تحاول أن تفهمني أن هذا الموضوع لا يشغل تفكيرها. أنت مهتمة بهذا الأمر أكثر من اللازم. لو وافقت على أحد الذين سبق لوالدي رفضهم من قبل، واليتم معنى لزج، لم أفهم معناه إلا اليوم، اليتم يعني الضياع. الحياة بدون منصور أبو الليل شبيهة بالموت، اليتم مساحات من اللاشيء. اليتيم كتل من الحداد، الموت معك حياة، ليس هذا وقت التفكير في

الزواج، لم تبدأ فترة الحداد بعد، الحداد قد يطول، قد يمتد عامًا آخر، لم أتزوج بعد، فأين أنت؟ الشامتون أكثر من أن يحصيهم العد فأين أنت؟ حسن الأعرج ابن لك فأين أنت؟ الشيخ مسعود يتحدث عنك بما يحلو له فأين أنت؟ لم طالت الغيبة يا أعز حبيب؟ متى ستعود؟ لن أزف إلا إليك، ويلتي، لن أفرح إلا بك، مصيبتي! لن أحب إلا أنت فأين أنت؟ الحداد، اليتم، الفرح، منصور أبو الليل، الضهرية الحزينة الطعينة، الحاج المقتول، العفريت المنتظر، الضهرية المهزومة.

* * *

ألم يكن من الأحسن لك أن تكملي تعليمك يا عيشة؟ كان من الأحسن فلا يا فتحي ولكن لوالدي رأيًا آخر، لم سكت حامد على هذا؟ إنها جريمة، أية جريمة؟ إذا لم يكن ما تريده فأرد ما يكون. هذا هو شعارنا، مضى عهد الغناء.

أنتي إنسانة عظيمة يا عيشة، مرت فترة تبادلنا فيها الصمت، تجرعنا الحزن بالتناوب ما ينتظرنا الآن بعيد عن الفرح والغناء، بعد هذا أصبحت يا فتحي شيئًا آخر، عاد من دمنهور وهو يضع على عينيه نظارة طبية، لا حداد الآن،

هناك عمل لا بد من القيام به، عمل لا يحتمل التأجيل. فتحي لا يرى من خلال النظارة إلا ما يروق له من أمور الحيـــاة، فيك كنوز لا تحصى يا عيشة، أنا معجب بك، أنا نظرت إليه أطلب المزيد، كتلة صمت، عبثت يداه بأشياء لا أهمية لهـــا، لابد من الثأر لوالدي، كيف أكسب احترامي لنفسي بقية أيـــام العمر إن كان للعمر التعس بقية؟ فتحي على علاقة بتلميـــذة من دمنهور، كنت أتمناك يا فتحي، لم قلت لي ذلك يا حامد؟ بيننا الآن كميات من العجز، الحداد، فتحي الأمل الذي مـــات قبل أن يولد، الأحلام التي دفناها معًا، ساعة الغروب، أبـــي المقتول، حسن الأعرج، الحب العاجز، النظـــرة الحيـــرى، التعبير الأخرس على الوجه المتعب المكدود.

* * *

اليوم الثاني من أيام الحداد الطويل.

القوا القبض على حسن الأعرج وزهران الرفاعي.

فيه دخل لحسن في الموضوع ده؟ نظر إلـــي أفـــق وادع، لا توجد أية أدلة مادية، هناك بعض الشكوك، يقولون: إن حسن الأعرج أخ لنا من امرأة أخرى. سبق لزهـــران أن توعد الحاج قبل قتله. لم أتكلم. الأمر محير. لا بد وأن أدفن

هذا السر بعيدًا في تلك البئر العميقة التي نلقي فيهــا بجثــث أحلامنا الميتة، ده مجرد شك، والشك دايمًا يفسر في مصلحة المتهم. أنا أكثر حيرة منك يا حضرة الضابط، كان حسن هو الوحيد مع الحاج ليلة مقتله، هو لم يقتله، ولكنه يعرف القاتل، ألححت على حسن بالسؤال، ضاق بي، بحثت في عينيه عن حبه القديم، تهرب مني، كانت إجابته: إنه لم ير شيئًا، فوجئ بالحاج مقتولاً في الصباح، حاولت معه المستحيل، تحول إلى كتلة من الصمت. لو تكلمت يا حسن لاسترحت من عــذابات لا حصر لها. كانت كلماتك ونظراتك تقول لي فيما مضــى: إنك مستعد لأن تدفع حياتك فداء لي، تضن عليَّ بالسر الآن، ثم أن فيه علاقة بين سكينة وزهــران، والــدي فــوق كــل الشبهات، حتى أنت يا حسن. حارتنا مسدودة. أين كانت كل هذه الأسرار؟ عرف الزيف طريقه إلى نفسك. وفيه علاقــة حب بين سكينة وحسن الأعرج. الشرخ قد أصبح تصــدعًا، ربما قضى على كل شيء، لم تكن الأمل الأخير الذي انهار، حتى أنت يا حسن. وأنتي عارفة إن فيه مشادة حصلت بــين الحاج وسكينة. عدنا إلى الحديث عن رجل لم تبق منــه الآن سوى ذكراه، لا أعرف أي شيء عما تتحدث، كثرت الديدان،

لا بد وأن هناك شيئًا ما يخص سكينة، محال أن يحدث هذا، محال وسكينة لم تقدم أي جديد في الموضـــوع. فـــي هـــذه اللحظات بدأت تموت في نفسي يا أعز حبيب. هل كنت على علاقة بسكينة. هل قتلك أحدهما أو هما معًا؟ محال أن يحدث هذا، محال.

* * *

حضر حامد من دمنهور، حضر معه صديق عمـــره فتحي، كانت المصيبة أكبر مما يحتمل حامد، لم يكن يتصور أن يحدث هذا لوالده، أهلاً فتحي، الحمد لله على السلامة. لم كبرت يا فتحي؟ أصبحت رجلاً في غفلة من الزمان، البقيـــة في حياتك يا عيشة. حامد أنت في حاجة إلى مخلب وظفـــر وناب، بعد هذا سأعطيك البندقية الموجودة عندنا، اشـــتراها والدك أيام مجده، لم يكن يدرك يومها أن هذه البندقية ستأخذ بثأره بعد أن يقتل، حياتك الباقية، لم تبدأ أيام الحداد بعـــد. لا أود عزاء من أحد، المصيبة أكبر من أن تقـــال فيهـــا هـــذه الكلمات. والله دا شيء مؤسف. أن الذي قتل الحاج منصـــور أبو الليل لن يقف عند هذا الحد، الخطر يهدد بلـــدتنا كلهـــا. الموت يتساقط على كل شيء كذرات الغبار في يوم اشـــتدت

الرياح فيه. سقط الحداد على كل شيء حتـــى الأجنـــة فـــي الأرحام. أصيبت بلدتنا بعقم لا علاج له، لف الحـــزن كـــل شيء، كالظلام مع بداية الليل الطويل. وما العمـــل؟ ســـنأخذ بثأره يا فتحي قال في عجز، نأخذ الثأر من مـــين؟ لـــم أرد، أفهمك أنت وحامد، رغم كل هذا أحبك يا فتحي، حب لا بـــد وأن أكتمه في نفسي، أبوكي مات الله يرحمـــه، البـــوليس ح يعمل كل حاجة شوفي نفسك أنت، نظرت إليه في احتقـــار، حتى أنت يا فتحي، ثم إنك بنت حلوة وصـــغيرة، اســـتدارت على الحائط المشروخ، لا بد من الثأر لك يا حبيبي حتى لـــو اقتضى الأمر أن أكون بمفردي، انتشر العار في كل ركـــن من أركان منزلنا كالنشع أيام الفيضان.

* * *

يوم من أيام الحداد، عندما حملوا جثمانه كان الوقت ليلاً، دفنوه. لا. لا. لا تدفنوه. لم أستطع منعهم مـــن ذلـــك. أحسنتم صنعًا، كان من المفروض ألا يدفن، معذرة يا أبـــي. يا عباد الله.. توفي اليوم إلى رحمة الله تعالى. سأزرع فـــوق قبرك شجرة للدموع. لن أسير في جنازتك. الحاج منصـــور أبو الليل، حضر كل أهل بلدتنا، تقومون بهذا العمـــل بحكـــم

العادة، هل تحبونه أم تخافون منه، أن ما زلت هنا في أعمق أعماق القلب. والدفنة الساعة سبعة. شكر الله سعيكم. لن أقبل العزاء من أحد، لن أسمع كلمات النفاق، وكل من عليها فان. لن يوارى في التراب، حتى نأخذ بثـأره أولاً. ولا يبقـى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام. لـيس هـذا وقـت الحـزن والبكاء، شكر الله سعيكم جميعًا. العزاء مقتصر على تشـييع الجنازة. غداة أن نأخذ بثأره سنقبل العزاء من كـل النـاس، سنقيم سرادقًا ضخمًا يقرأ فيه القرآن ثلاث ليال. الحداد فـي القلب. يا أعز حبيب. الحداد يعني الجلباب الأسود. الـدموع المتحجرة في المآقي. القلوب التي لا تنبض إلا بالكراهيـة. النفوس التي لا تعرف إلا الحقد. الحداد. الحـداد، يـا أعـز حبيب.

* * *

زهران يدخل منزلنا، ألف رحمة تنزل عليك يا سيد الرجال، لم يكن هذا الزهران يجرؤ على المرور مـن أمـام منزلك، أفرجوا عن حسن وزهران، عادا معًـا ذات صـباح حزين، دخل حسن حجرته في آخر المنزل، البقية في حياتك يا ست الكل، لذت بالصمت، الصمت لغة العاجزين، الحمد لله

على السلامة يا حسن، نظر إليَّ بلا مبالاة، لم يتكلم. استمر في نظراته، قال زهران: أنا اللي ح آخذ بتار أبويا الحاج، رأس القاتل هية المهر، احتميت في قوقعة الصمت واللامبالاة، عملت إيه يا حسن؟ ندت عنه همسة صغيرة. لا تدل على أن ثمة حياة هناك. رفض الطعام أكثر من مرة أنت وحدك الذي يعرف السر. تصر على إخفائه، لو قلت السر لأرحت الدنيا كلها، وا كبدي عليك يا حسن. قال زهران في أسى حزين: يا عيشة دا حرام، دمه خفيف، كان من الممكن أن يحدث بيننا شيء، لو كنت رجلاً حقيقيًا يا زهران؟ أحد صعاليك بلدتنا. ولكنك رجل، حيرتني، ماذا تريد يا زهران؟ عايزك تفهمي يا عيشة. أنا بريء، نحن الغرقى في بحار التيه والعدم، أنا عيشة منصور، هل سألتك؟ قال لي أنا في الخدمة. نحن أهل. يقولون عنك كل شيء. ولكنك رجل. لا تفهم معنى هذا الكلام. لا يبدو أنك تعرف القراءة والكتابة. لست أخًا لي حتى تأخذ بثأر والدي. القبض عليك لا بد وأن له سببًا ما. سأعرف السر من حسن، لن يصمت إلى الأبد. هناك قوة لا يمكن تصورها تجبره على هذا الصمت.

في أي شيء تفكرين يا عيشة؟ استدرت إلى زهران. ما زال هنا. قال لي: أنا تحت أمرك. على استعداد لكي أفكر بدلاً منك. أنت تصلح لكل شيء سوى القيام بهذه المهمة البسيطة.

ـ أنا موجود هناك. ح أطل عليكي كل شوية. لغاية ما نعرف القاتل، قوقعة الصمت الأجوف مرة أخرى، الصمت مهرب، الصمت عذاب.

ـ رأسه حا تكون مهرك، قلت إيه؟

ضحك في رجولة دغدغت حواسي في أنوثة. قال وهو في طريقه إلى الخارج:

ـ السكوت علامة الرضا، أهل زمان قالوا لنا كده.

حسن صامت، رغم أنه الوحيد الذي يعرف السر، كان موت أبي في صمت، لم يخرج حسن من غرفته منذ أن عاد جالس هناك بمفرده في الصمت والظلام، أصبح يفزع من مجرد دخول أي فرد إلى حجرته، أنت تطلب الوحدة يا حسن. كان والدي أول ميت لم يقم له مأتم كبير، يليق بمنصبه، ليس منصبًا رسميًا، ولكنه شيء في قلوب الناس، ما أطلبه منك يا حامد ليس مستحيلاً، عما قريب سنعرف

القاتل، بعد معرفته يبدأ عملك، عمل أحسدك على القيام به بمفردك، بودي أن أشترك معك، أن نخرج معًا، لنعرف السر، ولنأخذ السر، سنمزق أستار الوجود بحثًا عن السر، سنعبر المجهول معًا على جناح من البغضاء، بودي لو أبعدتك عن فتحي، يتحدث عن شيء اسمه السلام، وعما يمكن أن تفعله الحكومة، أمي توافقه على كلمات لا أفهم معناها، بالأمس شاهدتك تغمز لسكينة، افعل ما يحلو لك، عندما يبدأ الثأر للمرحوم أرجو أن أجدك إلى جواري، بل أمامي، أرجو أن أجد فيك حماس الرجال، بل حماس زهران الرفاعي فقط.

* * *

خرج حسن الأعرج من حجرته اليوم.

عندما سألته أمي عن وجهته أشار إلى لا شيء، لم يكن فيه إلا بقاياه، ماذا دهاك يا حسن؟ تحمل السر؟ هذا يعذبك، قله لي واسترح، نظر إليَّ في حزن عاجز أو عجز حزين، اقترب مني.

كانت أمي في الداخل، خفت منه فـــي أول الأمـــر، تحملت، جلس إلى جواري، ربت عليه، أحطتـــه بـــذراعي، بكى، بكاءً حقيقيًا، أقرب إلى النزيف منه إلى البكاء.

رفع وجهه إليَّ، نطقت ملامحه بـــالعجز، أحسســـت بغصة في الحلق، تحركت شفتاه في رعشة وشت بالضـــياع، خرجت الكلمات كأنها بقايا الجثث تخرج من قبر مهجـــور، جاء المخاض، لن نلد سوى الحزن، جاء المخاض، كل شيء عاقر، المخاض يا حسن، المخاض،

ـــ هات ما عندك، جاء المخاض.

* * *

نحن في فصل الشتاء، لا شيء في الشوارع ســـوى الرياح فهي تهب بعنف كي تدمر كل شيء، أنت في حاجـــة إلى من يدفنك الآن يا أعز حبيب، المقابر باردة، صوت ناي مشروخ يأتي من بعيد، جدًا، كل المنازل تغلق فـــي رعـــب دائم، الجو ملبد بالغيوم، ليلة أن قتل والدي كان الجو صحوًا، القمر يرسل نوره وأحزانه لكل شيء، حسن لم يعـــد حتـــى الآن، لن أصدق ما قتله لي يا حسن، لن أنام حتى تعود ولـــو مكثت بالخارج حتى الصباح، دون الثأر لك يا أبـــي تهـــون

الدنيا بكل ما فيها، مهما تهربت مني يا حامد فلقد آن الأوان لنفعل شيئًا ما، كفانا ما فات، الخطر لا يتهدد الرجل الذي مات فقط، يتهددني، يتهددك، يتهدد كل فرد في الضهرية، لابد وأن تجعلنا هذه الصدمة نفيق من النوم العميق، أي شيء خير من هذا السكوت.

قد تطول أيام الحداد يا بلدي.

فمعذرة..

سيكون هذا المساء حافلاً. سقط الظلام في هدوء كذرات الموت التي تتساقط في كل لحظة على الناس، لف القرية هدوء شبيه بالموت، حسن لم يعد حتى الآن، أكل الظلام النور الباهت في منزلنا، لفه سواد حزين، الغفير محمود مصطفى البرادعي، وهو الغفير الذي كان معينًا لحراسة جثمان والدي عند الساقية. ذهب إلى معاون نقطة البوليس، أخبره أن عنده أقوال ستفيد في البحث عن القاتل، أين أنت يا حامد؟ أين أنت؟ حان وقت العمل، إن لم تقم أنت به يا حامد، سأقوم به بنفسي، حتى زهران لن أعطيه الفرصة، فهو غريب عنا.

حان وقت الانتقام.

هنيئًا لك يا بلدي.

بعد قليل ستستريح في نومتك الأخيرة يا والدي. كدنا أن نعرف القاتل، سألقاك بعد قليل. سألقاك يا حامد، انقضى عهد الهزيمة والانكسار والحزن، في انتظار عودة الغفير محمود البرادعي من التوفيقية، متى يعود حسن من الخارج؟ منذ أن خرج من المنزل مع أول هذا المساء لم يعد، سأمزق أكفان الصمت والظلام بحثًا عنك، لولا القيل والقال لذهبت إليك مهما يكن مكانك. سأنتظر عودتك خلف باب منزلنا، أدغدغ القلق، استنشق بدلاً من الهواء أمورًا أخرى، بدأ المطر يهطل، مزيدًا من الرعد والبرق يا سماء بلدتنا، حطمي كل شيء. انتظري قليلاً، سأنتقم أولاً.

أشنع انتقام، ما حدث كان شيئًا ضخمًا لا بد وأن يكون الانتقام من نفس المستوى، معذرة يا أبي، أنت بمفردك الآن، حبات المطر تلمع في الظلام، الظلام محنة. مياه المطر باردة، قبرك وحده في العراء، آه لو استطعت أن أدفنك هنا في المنزل.

* * *

قتل حسن الأعرج. معذرة، حسن منصور أبو الليل.

بنفس الطريقة، على الساقية، وجدوه ملقى تحت شجرة الدموع، بجواره خمسة جنيهات مطبقة، نزفت القلق، تجرعت العذاب، كنت السبب فيما حدث لك يا حسن، لم تعش حياتك بعد. نزفت الحياة قبل أن تبدأ رحلتها الطويلة، كانت حياتك مأساة، الموت بعدها مأساة، قتل العفريت والدي، أخذ أرضنا، وأخذ الساقية بالقوة، من سيذهب إلى هناك سيقتله، هكذا قال، الأمر لا يقف عند حدود قتل والدي، أو قتل حسن الأعرج، إنه تهديد لنا جميعًا، ضاع الشيء الكثير، وما سيضيع أكثر، لن تقف الأمور عند هذا الحد، لا بد من الانتقام، حتى لو كان هذا الانتقام من العفريت.

* * *

ـ يا حبة عيني عليك.

ـ توفي اليوم إلى رحمة الله تعالى.

ـ كل من عليها فان.

ـ يا أعز حبيب.

ـ ولا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

ـ لن تدفنوه أبدًا.

الهزيمة

الهزيمة

كان رجلاً، ولا كل الرجال.

كان رجلاً، والرجال في هذا الزمان قليلون.

* * *

دون جسدك يا سكينة يهون كل ما في الدنيا، حتى الأمل والرجاء، وحتى الحاج منصور أبو الليل نفسه. التراب الذي تسير عليه عيشة أحلى منك، عيشة بالنسبة لي نوع من المستحيل، من الممكن الحصول عليك يا سكينة، تطلبين مبلغاً من المال، سأحصل عليه، لا بد من الحصول عليك، أحب عيشة ولكن في جسدك ما يشدني إليك، كثيرون يدخلون عندك. أشاهدهم بنفسي، أسهر على باب منزلنا، أقصد باب الحاج منصور أبو الليل حتى بعد منتصف الليل، كل الخارجين من عندك يبصقون على تحياتهم اللزجة. يتمنون لي أن أمحمى من الوجود، ها أنذا مثل العفريت، لم أرض، أسمع عن الدكتور، لم أره في حياتي، أرجو أن أظل هكذا إلى آخر العمر، سكينة مستعدة أن تمنحني ليلة من العمر، مقابل مبلغ من المال. عيشة لا ترد عليَّ السلام، اسمي

مكتوب في بطاقة التموين، لم أستخرج بطاقة شخصـــية وإلا أخذوني العسكرية ثلاث سنوات، مكتوب أن اســـمي حســـن منصور أبو الليل، والحقيقة خلاف ذلك، ربما كانت هذه هي الحقيقة، قالوا: أنني بلا أب وبلا أم، حضرت إلـــى الوجـــود كشيء غير مرغوب فيه، طفل صغير، يستنكره أبوه، وتنكره أمه، لا بد وأن أمي تعيش هنا، وأن والدي أحد الذين ألتقـــي بهم، قد يكون الحاج منصور أبو الليل نفسه. وهذا هو الســـر في أنه احتفظ بي لنفسه، أما أمي فقد تكون أيـــة واحـــدة. لا أرغب في أن يكون والدي هو الحاج منصور أبـــو الليـــل. معنى هذا أن تكون عيشة أختًا لي. أحب عيشة. قد أتزوجها ذات يوم، ما أحلم به نوع من المستحيل، ولكن هل هناك مـــا يحرم الأحلام علينا؟ سكينة تعطف عليَّ في بعـــض الليـــالي السود، لا بد وأن وراء هذا العطف أمورًا أخرى.

أنا مجرد عامل عندكم يا عيشـــة. ولكنـــي إنســـان، يقولون لي حسن الأعرج، أنا لا أعرج، أمشي كالحصـــان، أسعد لحظات العمر التي نخرج فيها سويًا في مشوار، هـــذا المشوار يكون في الذهاب إلى سيدي تاج الدين، لا تـــوجهين لي كلمة واحدة طيلة المشوار، مجرد المشي أمـــر جميـــل،

(هيا إلى الجامع يا حسن) أنتظر هذا اليوم، يوم الخميس بالليل أو ليلة الجمعة كما يسميها المتزوجون، نغوص معًا في ليل أسود صامت، زهران يتابعنا كل خميس، يبدو أنه ينتظرنا، أنا وعيشة، في مكان ما، ثم يتابعنا، كلماته لزجة، تقف ابتسامته عند شفتيه في حركة صعلكة. أنت أيضًا تطلب المستحيل يا سيد زهران، لو علم الحاج منصور أبو الليل بذلك لقضي عليك.

ـ الواد دا مش نازل لي من زور.

قلتها بقرف، قالت في براءة:

ـ واد مين؟

ـ الولد اللي اسمه زهران.

نظرت خلفها، شاهدته، مسحته بنظرة وشت بحب الاستطلاع ممزوجًا بالدهشة والانبهار، فرح هو بذلك، أدارت رأسها. لم تقل شيئًا، هل يرضيك ما يفعله يا ست الناس؟.

ـ أنا حا أقول لأبويا الحاج منصور.

فزعت، هدأت من روعي:

ـ لا يا حسن مش وقته.

قلت بشجاعة مبطنة بالخوف:

ـــ سيبني أرجع له.

قالت في استسلام جميل:

ـــ مش حا ينوبنا إلا الفضيحة.

كان زهران قد اقترب منا، أخاف منه، إذا كان الأمر يتعلق بعيشة فدونها يهون كل شيء.

ـــ أنت عارف البنت عيشة، بنت الغرابوة.

على استعداد لفعل أي شيء في سبيلك يا عيشة.

ـــ آه..

كانت كلماته مثله، بلا هدف سوى معاكسة عيشة، لو علم الحاج منصور بذلك، لن يلوم إلاي، لا بد وأن أصفي الحساب، معه فيما بعد.

ـــ اللي كانوا ناصبين خيمة قبلي البلد.

في الأسبوع الماضي تشاجرت معه، قال لي إنه سيتركني من أجل عيون عيشة.

ـــ ما لها؟

ـــ هي اللي خلفت حسن الأعرج، حبلت من الحاج منصور. كان لسة صغير، طيش شباب، رفض أبوه.

لولا هذا، لا تكمل التهديد، زهران: أعــرف بــاقي كلامك.

لا عمل لك إلا تهديد الناس، تحصل على كل شــيء منهم، لا أعرف ما هو الشيء الذي تطلبه مــن عيشــة، ألا تكفيك سكينة يا أخي؟ ما جلست أمام منزل الحاج منصور إلا وكنت أول الداخلين عند سكينة وآخر الخارجين من عندها.

ــ كان ظالم، تاني يوم طردهم من البلد.

* * *

مساء الخير يا ست سكينة، نظرت إليَّ، أخذت نفسًــا من سيجارة في يدها، تعيشين بمفردك بعد أن ألقوا بزوجــك ــ أقصد الذي كان زوجًا لك في الماضي ــ فــي الســجن. جميلة برغم هالات السواد التي تحيط بعينيك، جميلــة رغــم شعرك المنكوش، أنت أجمل مما قد يتصور الإنسان، خــرج الدخان من فمها وأنفها كثيفًا، (مساء النــور يــا حســن ــ ضحكت ضحكة اهتز لها جسدها الجميــل ــ يــا أعــرج) فرحت، قد يكون هذا بداية شيء ما تفعلــه الليلــة، اقتربــت منها، قليل من الشجاعة يا حسن أجمل ما في الدنيا أحضــان امرأة دافئة في إحدى ليالي الشتاء الباردة، لا تتحــدث عــن

الحجرات الدافئة، أو الشاي الأسود، أو المعسل المغموس، أو الغطاء السميك، أحضان سكينة كفيلة بأن تمنحني الدفء والأمان وأيضًا اللذة، قلت لها بمراوغة: أنا يعني بأقول.. نظرت إليَّ، أنت تعرفين ما سأقوله يا ست المعلمين (قول اللي أنت عايزه دوغري) أنا أريدك أنت، حرام أو حلال، أريدك أنت، تعرفين هذا جيدًا يا سكينة، لم تتجاهليني؟ ألست رجلاً، أنا رجل عندي من الرغبة فيك ما هو كفيل بأن يسعدك ليلة كاملة من العمر (ما أنتي عارفة اللي أنا عايزه، عايزك أنت) قالت بملاينة الذي يريد: (ما كانش يتعز يا حضرة) أعترف أن ملابسها غير نظيفة، خيل إليَّ هناك رائحة ما تنبعث منها. ولكنها جميلة رغم كل هذا. (اشمعنى أنا يا سكينة، أني عايزك) تناهت إليَّ ضحكة بيضاء منها، اهتز جسدها، شيئان جميلان فيك يا سكينة، الأول أنك بيضاء في لون القشدة، والأمر الآخر أنك سمينة ينام الإنسان فوقك دون غطاء (عايزني يعني إيه؟ إزاي؟) لو جمعت بيني وبينك غرفة واحدة، لجردتك من كل ملابسك، وعلى ضوء المصباح الباهت، والذي يتراقص في حزن وانكسار كحياتنا، سأجلس كي أشاهد مفاتن جسدك (زي ما تقولي، في

الحلال) خبطت صدرها بيدها، سعلت سعلة ممطوطة، (وأنت معاك إيه؟) اقتربت لحظة السعادة الحقيقية. أصبحت قريبًا جدًا من الحصول على سكينة، أبيع الحياة بكل ما فيها في سبيل الحصول عليك يا جميلة، معي ما تطلبيه، اطلبي، قالت ضاحكة: أطلب إيه؟ اطلبي ما تشائين، طلبت ست الحسن والجمال من الشاطر حسن أن يحضر لها تفاحة الحياة، من بلاد بعد بلاد واق الواق، قالت في حزن صامت: أريد جزءًا من القمر، قمر أيام زمان، قمر زماننا هذا أصابه عقم رهيب، قمر هذا الزمان يبصق علينا نورًا أصفر باهتًا، قلت لها بين الفرح وخيبة الأمل: سأحضر لك القمر، قمرًا حقيقيًا، اتفقنا إذا، قال الشاطر حسن: بلاد الواق الواق بعيدة المنال، قامت سكينة، دخلت إلى منزلها، لأول مرة أشاهدك حزينة، لم أكن أعرف أنه من الممكن أن تحزني، قلت وأنا أتشبث بآخر أمل: نقرأ الفاتحة. أشارت إلى داخل الحارة، اقرأها أنت والشيخ مسعود. ما دخل الشيخ مسعود في ذلك؟ قالت: اقرأها إذن مع الحاج منصور أبو الليل. بعد أن أغلقت الباب في وجهي، استدرت، الحارة لا يوجد فيها أحد. لم هذا الصد يا سكينة؟ قالت ست الحسن والجمال: محال، محال،

أغلقت سكينة الباب في وجهي. وقفت مصلوبًا في منتصف الحارة، أحسست طعم العجز والهزيمة في حلقي. قالت ست الحسن والجمال، باب سكينة مغلق كأنه المصير.

* * *

عيشة في حجرتها، فتحي يجلس معها، في انتظار قدوم حامد من الداخل، لم تنظرين إليه بهذه الطريقة؟ ويقولون: إنهم وجدوه مرميًا قبلي البلد. الفراغ في ليلنا لا يفرخ سوى الجريمة والزنا. حتى أنت يا ست الكل تحبين شخصًا آخر.

يقولون في القرية: بينما كان الحاج منصور أبو الليل ذاهبًا إلى الحقل في الصباح الباكر سمع صوت طفلاً يبكي بين أكوام السماد.

ـ ليه دخلتي على فتحي يا ست عيشة.

ويقولون: إن الحاج منصور أبو الليل قد أحضر هذا الطفل إلى منزله. أقصد منزل والده. وحتى الحاج منصور نفسه لم يكن قد حج إلى بيت الله. بيد أن هذا اللقب يكون ذا أثر رجعي في الريف، ويحكي أن عيشة كانت قد حملت وبعد الحمل تخلى عنها. تركها تذهب ككلمة تائهة في ضمير

الغيب. ويحكي أن الذي تركته سمي حسن. واشتهر فيما بعد بحسن الأعرج، ويحكي أن..

نظرت إليَّ نظرة زاجرة. لن أخافك. لكل شيء حدود يجب ألا يتعداها، فتحي زميل حامد. ولحامد كثير من الزملاء، لم هذا بالذات، قالت لي عيناها بدلال واضح. وأنت مالك؟ نطقت ملامحي بالمثل القائل (هو السؤال حرم) اقتربت مني محذرة بدلال جميل: أنت مجرد شغال هنا، أنا لست عاملاً فقط، أنا فرد من أهل هذا البيت يا عيشة، هددتها بأن أقول للحاج منصور، لم تهتم بما قلت، أنت أقرب أهل هذا البيت إلى قلب الحاج منصور أبو الليل، نحن ندرك هذا وما دفعني إلى هذا سوى الغيرة الحمقاء، هل تحرمينني هذا الحق، سارت بعيدًا عني، بدت مزق الضوء في المنزل المظلم، كثوب تم ترقيعه أكثر من مرة. نظرت إلينا الجدران في حزن صامت، ماذا جرى لك في هذه الأيام يا حسن؟ تساءلت عيشة. لولا الخوف لبكيت بين يديك بقية أيام العمر يا عيشة. لقدمت لك كل أحزان العمر الطويل، ما باليد حيلة، فتحي متعلم وشاب، له مستقبل، له أرض سيرثها، ميراثي من الحزن والعقم كثير كثير، ورثته قبل أن أولد، أبيعه إياك

بلا ثمن، له أب وله أم، أين أنا منه، لن أحقد عليه، سأحبه من أجلك أنت، معذرة يا أحب الناس، لا تلوميني على تدخلي في أمورك، ربما كانت عواطفنا نحو الذين نحبهم كل الحب هي الشيء الوحيد، الذي نخجل من قوله بصراحة وبصوت مسموع، مرة أخرى. معذرة.

* * *

كان جالسًا على المصطبة، ضخمًا، عملاقًا، رجلاً ولا كل الرجال، كانت شمس هذا اليوم قد استراحت متعبة منهوكة في الغرب، لم يبق قبل أن يغطس قرصها الأحمر القاني في مياه ترعتنا الهادئة الوادعة، سوى لحظات الانتظار.

ـ أنا كتر خيري اللي بوكلك.

نظرت إلى الأرض: أنا أعمل وأعيش من عملي، ما أطلبه يا حاج منصور ليس نوعًا من المستحيلات.

ـ أنت مش ابني علشان أعلمك.

تلك هي بلوتي ومأساتي، أمعنت في النظر إلى الأرض، إياك أن تفكر في موضوع المدرسة مرة أخرى، كان قد حضر من أخبرني بضرورة ذهابي إلى المدرسة كي

أتعلم، فرحت، جريت إلى الحاج منصور كي أخبره، منين أصرف عليك؟ معك من المال ما يصرف على بلدتنا بأكملها، أرضك بلا حدود، لك نصف مواشي البلدة، دعك من هذا يا حاج منصور.

ــ مين اللي يسرح الغيط، مين اللي يراعي حالنا يا حسن؟

هذه هي المرة الأولى التي تناديني فيها باسمي، اكشف عن نياتك أنت تريدني للعمل عندك. قلت في همس، الذي سيتخلف سيتغرم، نظر إليَّ في استياء: يعني خايف عليَّ من الغرامات؟ بعد فترة صمت: ما لكش دعوة أنا أتصرف، كل أمور الحياة تتصرف فيها بمفردك، كل الأمور في قريتنا، قلت وأنا أمسك بنفسي كي لا أجري خوفًا منه:

ــ طيب أروح الكتاب، أحفظ القرآن.

فكر في هذا الطلب، مسحني بنظرة غيظ، كاد أن يضربني، صمت، قال:

ــ روح، بعد ما ترجع من الغيط، المهم شغلنا إحنا الأول بلا تعليم بلا غيره.

* * *

ـ اسمك؟

يا خسارة.

ـ حسن منصور أبو الليل.

يا خسارتك في الموت يا حاج منصور.

ـ ابن المقتول؟

مصيبتك فيه يا بلدي كبيرة.

ـ لأ...

ـ أكبر مما قد يتصور الإنسان.

ـ قريبه؟

ـ لأ.

ـ نسيبه؟

ـ لأ.

ما هو السر في اسمك هذا؟ اسمه الحاج منصور أبو الليل. إذن أنت ابنه؟ قلت: لأ. لست ابنًا لـه، أخـذه العمـدة بعيدًا، لا بد وأنك تزيف له الأمور. لم لا تتكلم هنا أمـامي؟ وما تقوله غير صحيح، هذا العمدة يكرهني وإن كنت أجهـل السبب، ربما لأنني لم أذهب إليه لا شاكيًا ولا مشـكوًا فـي حقه، ستقول له ـ إنه أي أنا ـ لقيط، وجدوه بـين أكـوام

السماد ذات صباح حزين لم تشرق شمسه. وإن الحاج منصور قد أخذه وسماه باسمه، الحكاية ليست سرًا من الأسرار ولكنك تحب أن توهم ضابط البوليس بأنك عمدة شاطر. أخيرًا تنازلت يا مزيف كي تهتم بشئون الرعية، لولا وجود حضرة الضابط لما ظهر منك كل هذا الاهتمام، عاد الضابط بعد قليل. لا حول ولا قوة إلا بالله، ضرب الضابط كفا بكف، مصممة الشفاه من كل جانب، العمدة يمسح شاربه في زهو وخيلاء لا أريد شماتة من أحد، ما حدث لا دخل لي فيه، لا أحب هذا الإشفاق منكم، شوف يا حسن، أنصت إليَّ. اقترب مني، أصبح حديثه أقرب إلى الهمس:

ــ أنت الوحيد اللي كنت مع الحاج ليلة ما اتقتل.

ــ دا صحيح.

ــ كلامك يعتبر أهم كلام في التحقيق.

ابتسمت في زهو، مات الحاج منصور، أخيرًا أصبحت مهمًا يا حسن، لم تكن أكثر من مرمطون في منزل الحاج منصور أبو الليل، تتحمل بقدر من الحب طلبات عيشة وتتحمل بقدر من الكراهية طلبات الحاجة طمان، لن أضعف يا حضرة الضابط، لن أبوح بسري لأحد، هكذا اتفقت مع

العفريت، قرأنا معًا الفاتحة، لا بد وأن يظل هذا الســر لــي وحدي، لو قلته لأحد ما فمعنى هذا أنني سأدفع حياتي ثمنًــا لهذا القول، لا شيء يقف دون العفريت لا أحد يقدر عليــه، أعطيته كلمة نهائية، وعد الحر دين عليه، لست حــرًا، هــذا صحيح، حياتي نفسها ليست ملكًا لي، عندما فكرت في ترك القرية هددني الحاج منصور بالقتل: أنت فاكر نفســك حــر؟ قلت لنفسي في حزن: لقد كبرت، هذا العمل لن يــدوم لــي. صمت قليلاً، رد السلام على أحد المارين، لم تكن لي أم، لم أقل لأحد يا أمه، كلمة " أبويا " لم ترف على لســاني، نظــر إليَّ، أخاف نظراته، سمعت طفلاً على رأس الحارة يصــفق بيديه في فرح طفولي، أبويا جه، أبويا جه، انغرست الكلمات في قلبي المثخن بجراح الهزيمة المرة، فحزنت على نفسي.

ــ يا حسن أنت بتاعي، وأنا اللي ربيتك وأنــا اللــي اديتك اسمي، أعرف كل هذا، جميلك فوق الرأس، لن أتركك يا حسن، لقد أصبحت فردًا منا، عيشة في المنزل، وحامد في المدرسة، أكمل حديثه برقة:

ــ أوعى يا حسن نفسك توزك تهرب.

خفت منه، إنه قاس:

ــ أنا بحبك دا صحيح، إنما لو فكرت في الهرب حا أخلص عليك.

لن أرحل عن البلد، سأعيش بقية العمر معك، أنا لا أرض لي، وما باليد حيلة، لأ، لن أبوح بسري لأحد، لن أخون عهدي مع العفريت لا بد وأن نحرص على الحياة، فهذا هو المبرر الوحيد لأن يتحمل الإنسان كل متاعبها وأحزانها.

* * *

ــ نكمل التحقيق. سنك؟

ــ ٢٩ سنة.

ــ عنوانك؟

ضحكت في مرارة.

ــ الضهرية ــ مركز إيتاي البارود ــ بحيرة.

ــ أوصف اللي حصل بالضبط.

تحيرت.. كيف؟ لا تقترب مني كي توهمني بأن ما سأقوله سيظل سرًا بيننا.

ــ قول اللي حصل.

قلت:

ـــ سيادتك تسأل وأنا أجاوب.

والدي المحترم الحاج منصور أبو الليل، الضـــهرية، بحيرة، دام.

ـــ حسن مش عاوزين ملاوعة.

بعد التحية، قلت في دهشة:

ـــ هيه فين بس الملاوعة يا سعادة البيه؟

نعرفك يا والدي الحبيب بأننا..

لم تنظرون إليَّ هكذا يا زبانية البلد، هذا لـــيس مـــن عملكم. خرج الموضوع من عندنا نهائيًا يا حضرة العمـــدة، لن تكون هناك مساومات مع شيخ الغفر، قال الضابط بصبر نافد.

ـــ يا حسن الوضوح ما فيش أحسن منه.

حالتنا جيدة، الوظيفة مريحـــة، عـــداك العيـــب، لا ينقصنا سوى مشاهدة رؤياكم الكريمة يا والدي الحاج.

ـــ أنت الوحيد اللي شفت الجريمة.

يصل ويسلم إلى الحاج منصور.

ـــ واضح.

ـ يبقى لازم نعرف منك تفاصيل اللي حصل، من أول ما طلعتوا من الدار لغاية الحاج منصور ما أتقتل.

ـ ألف رحمة ونور تنزل عليه.

يسعدني يا والدي الحاج منصور، أطلب يد كريمتكم عيشة، بين القلبين قصة حب أخرس صامت لا بد وأن تباركه يا والدي، أنا في انتظار ردكم. والسلام.

* * *

الشيء الوحيد الذي يعذبني حتى الآن، أنني غير قادر على أن أصارحك بكل ما حدث يا عيشة. غصب عني، أود أن أفضي لك بكل ما حدث. لو حدث هذا ستكون حياتي هي الثمن، مهما كانت رغبتي في سكينة، فأنت الحب الأول والأخير، رغم أن فكرة كوني ابن الحاج منصور أبو الليل تسعدني من ناحية، فهي تشقيني من الناحية التي تجعل حبي لك نوعًا من المحرمات، عاهدت العفريت ألا أبوح بالسر، قد أضعف في لحظة من اللحظات وأحكي لك يا عيشة، هذه أول مرة أدخل فيها دوار العمدة. مكان كالح. مصطبة الحاج منصور أبو الليل ـ يرحمه الله ـ أنظف من هذا المكان، البنادق التي تثير الضحك مرصوصة كي تطارد الأوهام في

ليل أسود. بطانة السوء تحيط بالعمدة من كل جانب، تنظــر إليَّ، لست متهمًا، بل مجرد شاهد، سأريكم من الآن أنني لــم أكن أستمد وجودي من الحاج منصور، بل إنني رجل حقيقي. ستعيرونني بأنني مجرد لقــيط، عندئـــذ ســأطلب مــنكم أن تحضروا معي لتروا الداخلين إلى بيوتكم بعد العاشرة مساء، والخراجين منها، سأدعوكم كي تسمعوا التأوهات تخرج مــن نوافذكم التي سودها دخان الفرن، والتي أصبحت فـــي لـــون صدوركم وقلوبكم، لماذا رحلت عنا يا سيد الرجال؟ لم بكرت بالرحيل؟ ليتك لم ترسل حامد كي يتعلم في دمنهور، ما قيمة العلم في بلدتنا، كانوا يخافون منك يا أرجل الرجال، وأنت لا تعرف الشيء الكثير، في ليلة الدخلة سأقول لعيشة أحبك، لن أبوح بسري لأحد، ولا حتى لعيشة نفسها، لن تـــرد عيشـــة عليَّ، سأحل مكان الحاج منصور أبو الليل وأكيدكم، سأقول: الصمت علامة الرضا، سأكون رجلاً، سأقول لعيشـــة فـــي فحولة الرجال، لعن الله الخجل، سأمنحها حمايتي واسمي، يا حسرتي.

* * *

كنت أنا والحاج منصور سارحين الغيط.

ـ كويس.

ـ صلينا العشا، أنا والحاج وخرجنا.

همهمة استنكار، سيصفون الحاج بأنه ظالم، تلك هي طبيعة الأمور، ستقولون، أنه شوهد خارجًا من منزل سكينة ذات ليلة وأنها في تلك الليلة لم تمنحنه نفسها، خرج مكسور الخاطر. الذين يعرضون ما عندهم للبيـــع لا يبيعــون لكــل الناس. بين البائع والمشتري يفتح الله عليك، ربحك الله، كــل شيء تجارة.

ـ كنا مخلصين صلا.

إذا كانت هناك علاقة ما بين الصلاة والصوم والحج والزنا والظلم والقتل ففسروا لي لم يذهب الشيخ مسعود إلـــى سكينة؟ ولم يحلو السهر لشيخ الغفر إلا في منــزل محمــود البرادعي؟ ولم يصر على إبعاد دركه عن البلدة، كمــل يـــا حسن. استدار العمدة.

ـ مين الناس دول يا عمدة؟

وقف العمدة كالأراجوز، ما أحلاك وأنت تنظر هكذا يا حرباء!.

ـــ دول الغفر وشيخ الغفر. وابني نايب العمدة.

ـــ مش يكون أحسن يستنم بره واللا إيه رأيك يا عمدة؟

هب العمدة. بهبته وقف الجميع.

ـــ كلامك أوامر يا سعادة البيه.

مهما حدث لن أبوح بسري لأحد.

ـــ كمل اللي حصل يا حسن.

* * *

رغم أننا في الشتاء، وليل الشتاء أسود قاتم، إلا أن قمر هذه الليلة كان قمر أربعتاشر، وفي سيره البطيء كان يصطدم بسحب صغيرة متناثرة عندئذ كانت تبدو مزق الضوء الصغير وسط هذه السحب، بشكل جميل، كان لونه قريبًا إلى الاصفرار، الصمت، هبات النسيم الباردة، الجو جميل، لا يحلو للحاج منصور العمل في الحقل إلا ليلاً، في الليل يخلو الإنسان إلى نفسه، يعيش معها من الداخل، ليلة من التعب والعمل. بدت الحجرات الدافئة، والبيوت المحكمة البناء، النوافذ المغلقة، الأحضان الطرية، الأرداف الثقيلة، كجنان مستحيلة الوجود على الأرض، عندما تذكرت هذا

حزنت على نفسي، كانت عيشة جالسة في حجرتها، أرسلت لها تحية المساء فلم ترد عليَّ، يكفيني أن أكون إلى جوارك يا عيشة، ربما تحملين لي نوعًا من الكراهية. قالت ست الـــدار لابن العمدة ونائبه: أبو العيال زمانه راجع حرام عليك. أنـــا أيضًا أكره كل الناس سواك أنت يا عيشة، اعرفوا لي أصلي ونسبي وأنا أحبكم أما بدون هذا فلا شيء لكم عندي ســـوى الكراهية والبغضاء نتبادلهما في صمت، قال لها ابن العمدة: راجل مين أنا بعته البندر، مش ح يرجع إلا آخـــر النهـــار. بودي أن أعرف يا عيشة، أن أعرف الفارس الذي اســـتولى على قلبك. قالت ست الدار وهي تستسلم: يا فضيحتي يـــاني، إنه ليس زهران فأنت لا تحبين سيرته رغم إلحاحه وهو ليس فتحي، فلقد انقطع منذ مدة طويلة عن الحضور إلى هنا، كان يحضر كل يوم، أنا لا أذهب إليه لإحضار كتب ثم أعيـــدها إليه، قالت ست الدار وهي تتجرد من كل ملابسها بصـــوت دغدغته الرغبة فخرج مرعوشًا مبتورًا يطلب الإشباع: بـــس والنبي بسرعة، لست جاهلاً يا ست عيشة أنا أدرك أن بـــين صفحات تلك الكتب أوراقًا منه وإليه، ليتني تعلمت القـــراءة، منك لله يا حاج منصور، والحاج منصور يسير أمامي إلـــى

الحقل، طويلاً، عملاقًا، أنت السبب في كل هذا، قال ابن العمدة: بدا لي الحاج منصور في ضوء القمر الباهت كالقضاء، حسدت بلدتي، أنه رجلك يا بلدي هو الملك وأنت مملكته، أبقاك الله لنا طويلاً، قالت ست الدار والنبي تزودهم ربع جنيه، لم يرد عليها، ارتدت ملابسها في صمت حزين.

* * *

ـ ما كنتش ملاحظ أنه فيه حد ماشي وراكم؟

ـ لأ..

ـ الدنيا كانت منورة؟

ـ لا.

ـ قمر شتوي. كانت ليلة صافية. الجو كان رايق.

ـ كان فيه حد بيشتغل قريب منكم؟

ـ لأ.

ـ متأكد؟

ـ طبعًا.

ـ إيه الدليل؟

ـ أي حاجة بتعمل صوت.

ــ ممكن تقول اللي عملته في اليوم ده وبالضبط من أول النهار لغاية ما روحت.

ــ زي كل يوم.

ــ اشرح.

لا شيء هنا يتغير، أرجوك اشرح يا حسن، استدرت إلى الواقفين خارج دوار العمدة، هل شاهدت هذه الدهشة على كل الوجوه؟ لقد حضروا جميعًا، إن اليوم عيد بالنسبة لهم، حدث شيء لا يحدث كل يوم، حضورهم هنا ليس خوفًا ولا حزنًا ولا حتى محاولة لرؤياك مرتديًا بدلة الضابط التي تخيف كل الناس منا. ولكنها محاولة للاستمتاع بالشيء الجديد الذي يحدث لنا. تكلم يا حسن، ذهبنا إلى الحقل في الصباح الباكر، رجعت الضهر كي آخذ غذائي، ذهبت إلى الحقل مرة أخرى. ساعة المغرب رجعت ومعي البهائم، يحدث هذا كل يوم، نحن لا نعرف الأجازات ولا الأعياد الرسمية، لا نعرف سوى العمل في الحقل، ينادينا منذ الصباح الباكر، لو تأخرت قليلاً في المنزل فصياح الجاموسة التي تطلب البرسيم أو ما يحل محله كفيل بأن يخرجني فورًا من البيت. ليس هذا إخلاصًا مني في العمل يا حضرة. ولا

محاولة لبناء حياتنا الجديدة كما يقول أعضاء الاتحاد الاشتراكي ولكن لأنه لا يوجد هناك ما يمكن أن نقوم به، ليس ثمة عمل آخر، وقاك الله شر الفراغ، أو دعني أقلها بلغتي أنا. شر الصياعة واللكاعة.

* * *

أحضرت معي جنيهين، مبلغ كبير هنا. أعفوني من شرح الطريقة التي حصلت بها على هذا المبلغ، أعمل عند الحاج منصور بأكلي وشربي، لا أشرب عنده سوى المياه البحاري، أما المياه المعين المعتبرة فهي لعمل الشاي ولتغير مياه الجوزة والطبخ. الحاج منصور رجل مزاج، له ليال مشهود بها في تاريخ الضهرية الذي لم يدون بعد، وهو ابن نكتة ولكنه في النهار شخص آخر. لا آخذ من الحاج منصور نقودًا إلا في الأعياد والموالد وهي قليلة العدد. أربعة موالد في السنة وعيدان، أحضرت هذا المبلغ بطريقة ما. سأذهب إلى سكينة الليلة. قالت له ست الدار وهي تداري نفسها ح تديني ربع جنيه بحاله، ستكون ليلة خالدة خلود الحياة كلها. سأحصل عليك وتكونين عارية تمامًا سأمزق أستار الحياة بحثًا عن السر المجهول، سألتصق بك وأطلب من السماء أن

تنزل مخزون المياه، لا يوجد أي شخص يدفع هذا المبلغ الكبير ولكنني سأدفعه، سأفعلها مرة واحدة، لا مانع من حدوث زلازل تحطم بدلتنا كلها. تغوص بالضهرية حتى أعمق أعماق الجحيم، وأنا بين أحضانك الطرية يا سكينة، لنرتفع معًا إلى السماء العاشرة إن كان بعد سمائك السابعة سماء أخرى يا رب، ربما كنت لقيطًا في نظرك ولكن هل لذلك دخل؟ لتكن ليلة سعيدة، لتحترق الضهرية كلها بنار الحقد والكراهية.

مساء الخير يا ست الكل، نظرت إليَّ، كانت تائهة حيرى، لم ترد عليَّ، حاولت أن أتظرف معها، لن يوصلني الحزن إلى شيء ما بالمرة. في الأعماق جرح ينزف باستمرار، ولكن الآن وبين طيات جسد سكينة سأدفن كل شيء، حتى الجراح والأحزان، الأمانة جاهزة يا ستي، لأول مرة تنتبه إليَّ، تبدو كمن أسكره الحزن، دعي الأحزان جانبًا، تسعة وعشرون عامًا مضت من حياتي لا قيمة لها. قيمة الحياة ليست في الذهاب إلى الحقل كل صباح. لم تنظرين إليَّ هكذا يا سكينة.. أمانة إيه يا سي حسن؟ يا دين النبي، يتمنعن وهن الراغبات، قالها سيدي الشيخ مسعود، اقرأ في

عينيك رغبة محمومة. سأشبع هذه الرغبة الليلة، لن نخـــرج من حجرتك السوداء إلا بعد ألف عام، لا بد وأنك ستشعرين بالندم على أنك لم تحصلي على مثل هذه الليلة مـــن قبـــل. اقتربت منها وأنا أتحسس جيبي لأتأكد من وجود المبلغ فيه. الفلوس. قالت كمن يحاول أن يفيق. فلوس إيه؟ لا بـــد مـــن مواصلة الطريق مهما كانت المتاعب، اللي طلبتـــيهم، أنتـــي نسيتي واللا إيه؟ ضحكت. كل شيء فيـــك جميـــل، بشـــرط واحد، أن تعطيني من نفسك هذه الليلة ما أطلبه وإلا فالويـــل لي. الحمارة والجاموسة والبقرة لم يقدمن لي حلاً لمشـــكلتي المزمنة. ربما كان الزواج بحل ولكن أي حـــل وأي زواج؟ هل نسيت أنني..؟ لن أكمل. حكم نهائي بالعـــذاب الأبـــدي، اقتربت منها، قلتي إيه؟ قالت بكلمات ممطوطة: معاك كـــام؟ وصلت إلى أجمل ما في الموضوع، ليل الشتاء طويل، الدماء تغلي في عروقي، عندما نام ابن العمدة مـــع ســـت الـــدار، تحسست لحمه الطري وقالت في دلال: ليل الشـــتا طويـــل، سأحضر لك بعد ذلك كل ما تطلبينه، سأبيع نفسي في ســـوق الثلاثاء، كي أبقى معك يا أجمل امرأة، قلت بفـــرح: اثنـــين جنيه، مرت لحظة، طالت أكثر من اللازم، بس؟ أصـــابتني

خية أمل، همه دول شوية؟ قالت: كملهم خمسة، كويس، ضحكت وهي تقلدني، وعلى سنة الله ورسوله، قلت بدون وعي: والمؤمنين، آمين، حتى سكينة أصبحت غالية، لو عرفت كيف أحضرت هذا المبلغ يا سكينة لأعطيتني كل ما أطلب، ألا يكفي أنني أعصي المنتقم الجبار؟ ولكن لم أحكم على نفسي، بعض الناس شاهدوا الشيخ مسعود خارجًا من عندها، منك لله يا سكينة، قالت ببلاهة: أمال يعني مني لك، واللا لحضرة العمدة؟ استمرت في ضحكتها العابثة، واللا منى للحاج منصور أبو الليل، استمرت تضحك حتى تقيأت، كم كرهتها في هذه اللحظة، الحاج منصور أبو عيشة، استلقت من كثرة الضحك والقيء، جلست بجوارها، أنتفض من الرغبة، عندما أفاقت أدخلتها إلى غرفتها، أدخل هذه الحجرة للمرة الأولى الليلة، لا تحدقي فيّ هكذا أيتها الجدران، عما قريب سأكون من أهل البيت، تحت سمعك وبصرك ستحدث الأعاجيب، المهم الآن أن أجد مكانًا أضع فيه هذه النقود بعيدًا عن منزل الحاج منصور أبو الليل، خرجت إلى الحقل.

ها تولى ناي بكر.

ـ رحت معاه عند الساقية الأول، وبعـدين نزلـت الغيط وسبته هناك.

ومخبي الهوا جواه.

ـ ما كانش فيه حد خالص؟

كانت ليلة جميلة، لم أجد معي ما أدفعه نقطة للغازية التي كانت ترقص.

ـ لأ..

وضع زهران جنيهًا كاملاً على جبينها، احتكت بـه أكثر من مرة:

ـ متأكد؟

ـ طبعًا.

لا بد وأنه أخذ منها موعدًا، بطنهـا يهتـز بطريقـة مثيرة، لم أعرف طعم المرأة حتى الآن.

ـ فتشت المكان.

في البندر نساء أحلى منها، شاهدتهن عندما ذهبـت إلى دمنهور كي أوصل بعض الأشياء لحامد.

ـ متأكد ليه؟

زعق الوابور ع السفر، عيطت رايحين فين؟

ـــ اللي ح يكون عند الساقية ح يعمل إيه؟

إنها تجلس على حجر ابن العمدة، ستكملان الجولة معًا في الحجرة الموجودة خلف الدوار.

ـــ ما تتهمش حد بقتله؟

ظلت على حجره مدة طويلة، حتى الغازية لم تنس أنك ابن عمدة.

ـــ ما سمعتش منه إنه كان خايف من أي حد؟

اقتربي مني، وضعت النقود في مكان بعيد جدًا.

ـــ ما كنش فيه حد يقدر يخوفه في الدنيا كلها.

رايحين تغيبوا سنة، واللا تغيبوا اتنين.

ابتسامات السخرية والشماتة تعود إلى وجوههم، سأعرف كيف أربيكم. ولكن صبرًا، ألم تسمع أي فرد يهدده في الأيام الأخيرة. لا، ألم تشم رائحة خلاف بينه وبين أي شخص في البلدة، لا.

ـــ إيه حقيقة علاقته بسكينة؟

انزعجت، وما دخل سكينة في هذا، أنا أحب التراب الذي يمشي عليه الحاج منصور ولكن الحي أبقى من الميت، من يمت لي له عندنا إلا أن نطلب له الرحمة كلما زرنا

المقابر، ثم إن هناك اتفاقًا بيني وبين سكينة على ليلـــة لـــن تحسب من العمر يوم القيامة.

ـــ ما أعرفش.

لا تعرف؟ ما أعرفش، لازم تعرف؟ مـــا أعـــرفش، أعرف إزاي؟ كنت معه بصفة مستمرة، كنت أقرب النـــاس إليه، لم أكن سوى نفر عنده، هذه الأمور لم يكن لي فيها أي تدخل. قال وهو يستدير، كمن يود أن ينهي حديثًا ما: علـــى العموم سكينة اعترفت بكل حاجة، كلامك مش مهـــم، بـــأي شيء اعترفت لك؟ هل كان بينها وبين الحـــاج منصـــور أي شيء؟ مستحيل، إن الحاجة طمان كانت يقظى، إنها مثل عود الذرة الجاف، ولكنها لم تكن تسمح بحدوث مثل هذه الأمور، ما هو سر علاقتك بسكينة؟ رغم الانزعـــاج البـــادي علـــى وجهي فلقد سررت في أعماقي، جميل جدًا أن أبدو أمام نساء القرية كرجل له علاقات كثيرة. عيشة للقلب وسكينة لرغبات الجسد ونزوات الجزء الثاني والأخير من الليل. ما هو ســـر علاقتك بسكينة؟ أنا؟ كفى استعباطًا يا حسن، هل لي علاقـــة بسكينة؟ شاهدك بعض الناس تجلس معها، كان الحديث أقرب إلى الهمس، جميل يا حضرة الضـــابط، تعـــالي يـــا عيشـــة

لتسمعي، لتعرفي أخيرًا أن حسن الأعرج الذي لـــم تكـــوني تجودين عليه حتى بكلمة واحدة كانت له علاقات أخرى.

ــ في مرة ثانية قعدت معاها، طالت الجلســة، بعــد كده دخلت معاها جوه البيت، بالتحديد لغاية أودة نومها، وما طلعتش إلا تاني يوم الصبح. أكمل صوت مشروخ:

ــ بعد ما طلعت اندلقت مية حما في الحارة.

ارتفعت بعض الضحكات، لو كان هذا قد حدث لكنت فخورًا به الآن كل الفخر ولأعترفت لكم بكل شيء.

ــ حصل؟

ــ وحصل إن كان فيه سوء تفاهم بين سكينة والحاج منصور؟

ــ ما أعرفش.

* * *

خرجت خلف الحاج منصور أبو الليل، خلفي تســير البقرة والجاموسة، فوق كتفي فأس، في يدي الأخرى منـــديل به شاي وسكر وبعض الأكل، عندما كنت خارجًا من الـــدار ألقيت على عيشة تحية المساء، لم ترد إلا بنظــرة صـــامتة. كان عليَّ أن أخرج بسرعة، توقفت أمامها، معذرة يا عيشة،

الحاج منصور أبو الليل يسير أمامي، عملاقًا ضـــخمًا، مـــن سماك أبو الليل ما أخطأ في هذا، اسم على مسمى، أنـــت لا تخف حتى الليل نفسه، الكل يخاف منك، ولكنـــك لا تخـــاف أحدًا، أشاعوا أنك ذهبت إلى سكينة، لا أصدق هذا الكلام يـــا حاج. أنا أؤمن بك إلى أبعد الحدود. ستروي الأرض الليلـــة. صدقني يا سيدي أن الذي يروي الأرض ظمآن، في حاجـــة إلى من يرويه، يكفيني أن أبقى بجوارك يا عيشة، سأظل إلى جوارك حتى تتزوجي شخصًا آخر المحصول السنة دي إزيه يا حسن؟ أسرعت كي ألحق به الجاموسة والبقرة لا تعترفان بمثل هذه الأمور. اضطررت إلى أن أرفع صوتي: كـــويس خالص. قال في فرح: يعني زي السنة اللي فاتـــت؟ قلـــت: وأحسن والله العظيم، صمت لحظة، نظر إلى الحقل في ضوء القمر الساجي، كأنما ليختبر صدق كلامي: يبقى لك الحـــلاوة يا عم. قلت كمن يود أن يطيل الحديث: أديك بتقول كده كـــل سنة، القمر ينتحب في صمت، قصدك إيه يا حسن، قلـــت: لا ولا قصدي ولا حاجة، ما أنت عارف. القمر يبصـــق نـــوره الباهت على كل شيء. توقف، استدار إليَّ: يا ابني فلوســـك معايا. قلت بفرح: صحيح يا با الحاج؟ صمت، لم يرد، أكمل

حديثه بعد برهة وكأنه لم يسمع تساؤلي هذا، أنت راجل ومحتاج للجواز، بعد جني المحصول اختار بنت الحلال وشوف أنا ح أعمل لك إيه. لقد كبرت، أمثالي معهم أولاد عمر أكبرهم عشر سنوات. ما كان يجب أن أنتظر كل هذه الفترة الطويلة. ولكني بلا جذور. لعنة الله على الجذور، خلاص يا عم، قالها وقد وضع يده على كتفي في حنو، ربما كنت والدي حقيقة. وهكذا تضعنا الحياة في مثل هذا الموقف، كي نحصل على شيء ما لا بد وأن نتنازل في نفس الوقت عن الشيء الآخر، وجودك معي هو العزاء الوحيد في هذه الليلة الباردة. ربنا يخليك يا با الحاج ويطول عمرك ميت سنة، لأول مرة أهوي على يديه أقبلهما بمثل هذه العاطفة. لم أكن منافقًا فيما مضى ولكني كنت أمارسها بحكم العادة. أدعو لك من كل أعماق القلب بطول العمر يا حبيبي. قال لي: ما تخافش عمر الشقي بقى. وعلى العموم الفلوس مع الحاجة طمان لو حصل أي حاجة، ضاع القمر وسط سحاب أسود داكن. عوى ذئب، نبح كلب، انقبض صدري، لم أرد عليه. كانت إحدى مداعباته الجميلة، معذرة يا والدي الحاج إن كنت قد ذكرتك بهذه الأمور.

* * *

ـ ساعة ما اتقتل ما سمعتش أي استغاثة؟

لا، لا أستطيع، لن أبوح بالسر.

ـ لأ.

بيني وبين العفريت عهد مبرم، لا بد من أن أحترم هذا العهد، الحياة أمنية.

ما سمعتش أي صوت؟

ـ لأ.

في عيني عيشة ضراعة وتوسل، وبحث فاشل عن غرام قديم. لا أستطيع.

ـ ما صدرتش أي صرخة؟

ـ لا.

عندما تصبح التضحية بالحياة هي المخرج الوحيد، فلن يكون ذلك إلا لعيشة. قال الضابط: أنت كذاب، صرخت من أعماق اليأس: لأ يا أفندم، قال في يأس: إن لم تقل لي على القاتل الفعلي.. مرت فترة صمت. أنت قاتل الوحيد في هذه الحالة.

الحياة لم تعطني أي شيء حتى الآن. لم أعشها. لا أريد الموت. أريد الحياة. أريد الحياة.

* * *

قام الرجل يعمل الشاي بنفسه، أحضره لي أمام الميه. كم أنت متواضع يا سيد الرجال، بدأت علاقتي بك هذه الليلة. ارتبط مصيري بك، أنت بالنسبة لي كل شيء، الأمل والرجاء، تهون الحياة في سبيلك، إن مواصلة الحياة بدونك أمر مستحيل، كنت مخطئًا عندما فكرت في الرحيل عن البلدة، لا قيمة للحياة إلا معك، في منتصف الليل تناولنا عشاءنا، قلت لنفسي وأنا أمسح فمي بيدي وأشرب من مياه القناة، جميل أن نصفو نفوس البشر، خرج القمر من تحت السحب، فك الظلام حصاره الأبدي حول كل شيء.

ـ أنا ألقي عليك القبض بتهمة قتل الحاج منصور أبو الليل مع سبق الإصرار.

ـ مظلوم والله العظيم.

ـ خذه يا عسكري.

ـ مظلوم يا حضرة الضابط.

* * *

حجرة السجن صغيرة، زهران الرفاعي في الحجرة المجاورة، على الرغم مما كان بيني وبينه فإنه عندما تقابلنا بالفناء الخارجي صباح أمس حياني بود، عزم عليَّ بسيجارة، إنه إنسان على الرغم من كل شيء، مهما حاول الضابط فذلك هو سري، سأحتفظ به إلى الأبد، قتل الحاج منصور أبو الليل وضاع كل شيء، لا أعرف كيف سأخرج إلى الحياة بعد ذلك. عندما اتهمني الضابط بقتله سخرت من كل شيء، من كان يجرؤ حتى على النظر إليه؟ ربما كنت الوحيد الذي أعرف السر، مشكلتي أنني حريص على الحياة. لم أدخل دنيا بعد، ما زلت في صدر الشباب، لو حضرت عيشة إلى هنا لضعفت أمامها، زهران، ما دخله؟ عندما هدد الحاج منصور لم يكن يعي كلماته، كان يدرك كما يدرك الجميع أنه لا يقدر على تنفيذ هذا الوعيد، هذا حظه، عندما رآني زهران للمرة الثانية قبلني في حب، في الشدائد تعرف المعدن الحقيقي لكل إنسان.

* * *

روح شوف أنت ابن مين، وبعدين تعالى اتكلم معايا؟!. تبعت هذه الكلمات ضحكات سخرية كظمت غيظي،

استمرارهم في الضحك والسخرية جعلني أكور لهم قبضتي وأهددهم، ازدادت سخريتهم مني: أنا ابن الحاج منصور أبو الليل سيد البلد كلها.

قال أحدهم ضاحكًا:

ــ وأمك تبقى مين؟

ــ رد إن كنت شاطر.

ليس عيبًا في أنني لا أعرف والدي. ليست ميزة في أحدكم أنكت تعرفون بيوتًا لكم وأهلاً تعيشون معهم، أفضل شيء هو الانسحاب، حكم عليَّ بهذا، لن أستطيع أن أغير من هذا الحكم شيئًا، كان من المفروض أن تعترف بأنني ابنك قبل أن تموت يا حاج منصور ولو حتى بالكذب. لم يكن يجب أن تتركني هكذا عرضة لكل كلب، لم يكن ذلك سيكلفك كثيرًا، لم تركتني إذا؟ الحاجة طمان لا تقبل وجودي بالمنزل، الأستاذ حامد لن يهتم بشئون الرعية، إنه في عالم آخر، موقف عيشة مني واضح، لم يكن هناك سواك، كانوا يخشونك، من لي الآن؟ لست ضعيفًا إلى هذا الحد، تعلمت منك الشجاعة وأمورًا أخرى لا تسر البال، ماذا أقول لهم عندما يوجهون إليَّ السؤال الخالد. وحتى لو كنت أنت والدي

من هي أمي؟ لماذا بكرت بالرحيل؟ ألم تفكر في أنك ستترك إنساناً مقطوع الجذور؟ لقد كنت كل شيء. لن أعـود إلـى الضهرية، لا حياة لي فيها بدونك، لو كان بيدي لدفعت حياتي ثمناً لإنقاذ حياتك، الكلاب والديدان تحركـت بعـد موتـك. أخرجوا ثمناً لإنقاذ حياتك، الكلاب والديدان تحركـت بعـد موتك، أخرجوا ألسنتهم لي،أين كنتم قبل الآن؟. لوحت لهـم بقبضتي، قبضة خائفة وجلة، سخروا مني، يعرفـون أننـي خائف منهم، أنا خائف بالفعل، بعد قليل سيوجهون لي السؤال الخالد، خلود الحياة. قلت قبل أن تموت بلحظات عمر الشقي بقي، سخرت مني عندما دعوت لك بطول العمر، لـم تكـن تدرك أنك ستموت في هذه الليلة.

ــ ألف رحمة من الله تنزل عليك يا سيد الرجال.

* * *

طلبني حضرة الضابط أكثر من مرة، يعتقد أن لـي دخلاً في الموضوع. لو كان القاتل إنساناً لقلت لـك عليـه. بودي أن أحكي لك ما حدث، كل يوم لا يوجد عندك سـوى نفس الأسئلة. لا يوجد من يعرف حكايتي سـوى زهـران، يعاملني باحترام، الكل هنا يعرف أنني شخص مهـم. كلمـة

واحدة مني ستحيل القضية إلى شيء واضح. حضر الأستاذ حامد، لم يسأل عني، لم يبادلني كلمة واحدة. رمى لي بعض النقود وانصرف، لم أقرأ نظراته. كنت أتمنى أن يقول لي أي شيء. ربما شك البعض أنني القاتل. هذه النقود من عيشة، هي التي طلبت منك وألحت عليك في الطلب أن تحضرها لي، شكرًا لك يا عيشة. لست في حاجة إلى النقود. الحياة هنا أكثر راحة. وأوحشتني كثيرًا، لا شيء ينتظرني في البلد سوى الشماتة والتشفي، رغم هذا أود أن أعود بأسرع وقت، لو حكيت له حكاية العفريت لرحلني فورًا إلى مستشفى المجاذيب. قد أثبت له بعد ذلك أنني عاقل حتى أنت يا سكينة لم تأتي، إليَّ ولا حتى مرة واحدة. حضرت إلى زهران من ورائي، الجنيهان أصبحا خمسة جنيهات كاملة، نفس المبلغ المطلوب. بمجرد خروجي من هنا سأحضر إليك. كان الحاج منصور أبو الليل هو المانع الوحيد بيني وبينك. ذهب الرجل العظيم. لن يكون هناك مانع، على سنة الله ورسوله والمؤمنين، تمامًا كما طلبت مني، جازاك الله كل خير يا حاج منصور. كلمة واحدة منك كانت كفيلة بأن تجنبني هذا المصير، لا فائدة من كل هذا الآن، ما مضى قد مضى، لابد

وأن أواجه حياتي كرجل. لا بد من الشجاعة فالشامتون أكثر من أن يحصيهم العد.

إلحقني يا حسن، بسرعة يا ولد، كنت في وسط الحقل، كان الليل يئن أنينًا مكتومًا كصوت الضائعين، نور القمر الشاحب وقد تداخل مع ضوء الصباح الوليد، غير معقول أن يستغيث الحاج منصور. ذكرني نور القمر الأصفر بوجه المصدور، العائد بعد أن رفضته المستشفيات الأميرية. إلحقني يا حسن، يا خلق هوه، أسرعت إلى الساقية، لو تركت المياه لغرقت الأرض، ولذهب هذا العام أيضًا ولا بد من انتظار محصول العام القادم. من يدري كيف ستكون الأمور بعد ذلك؟ علم هذا عند ربي. ويقولون إنه أشجع رجل في الناحية كلها. صوت إنسان يموت. ويحكون أنه ملك وإن ناحيتنا هي مملكته، الحاج منصور أبو الليل ملقى على الأرض، هو كل شيء في هذه الناحية، لسانه خارج من فمه، عيناه جاحظتان، لا بد وأنه مات بالفعل، كيف حدث هذا؟ شيء آخر مهول. قدمان من الحديد. شخص طويل جدًا. تبدأ قدماه من الأرض وتنتهي عند أول السماء، يزداد طولاً وعرضًا، لا بد وأن هذا هو الفاعل، من هو؟ لست أدري

بالطبع. اقترب مني، هيه ماذا تقول؟ يداه من الحديد، طويل، طويل، ويقولون: إن الحاج منصور لم يولد بعد تسعة أشــهر حمل فقط، وأنه نزل يتكلم. وأنه لم يــأت إلــى الــدنيا مــن الخلف،وأنه، وأنه. وقعت على الأرض من شــدة الخــوف، أصبحت بجوار الحاج منصور. يقصر مرة أخرى، يتحــول إلى شيء في مثل طول الإنسان كيف حدث هذا؟ متــى؟ يــا أرحم الراحمين أين رحمتك؟ لم أدرك شيئًا محددًا بعد هذا.

* * *

دفنوا الحاج منصور. لم يقيموا له مأتمًا، كم فعلــت لأهل هذه البلدة، لو قدر لك أن تعرف موقفهم منك بعد موتك لرأيت بنفسك فصلاً من أطول فصول النفاق، مبك ومضحك في نفس الوقت. ليه موش عايز تعترف يا حسن؟ هزني هذا الصوت. سمعته من قبل كثيرًا. أحبه. أنا سكينة يــا حســن، نظرت إليَّ بعطف بالغ. هانت أيها الزمان تجود علــيَّ بمــا أطلب. ولكن بعد أن انتهت، مقابل هذا السر يضيع كل شيء حتى الحياة نفسها. أخيرًا جسد سكينة ملاصقًا لجسدي وفــي حجرة واحدة. اتكلم يا حسن. ماذا سأقول؟ ضاعت الكلمات. قالت وقد احتضنتني: قول ع اللي قتل؟ لا. لا أستطيع، يعني

عاجبك رميتك في السجن دي. قالت هذه الكلمات، مالت عليَّ. أوضحي عما بداخلك من الذي أحضرك؟ أم حضرت بنفسك؟ ضحكت في أنوثة:

ـ يعني مش عارف، هو أنا لازم أتكلم يا سي حسن؟

مستحيل أن يحدث هذا. ما هي مصلحتها في أن أعترف أو لا. مين اللي قتله؟ لا، لا أستطيع، حد من طرف العمدة. لن أبوح بسري. زهران. لا. لن أقول حرفًا واحدًا. زهران أليس حبيب القلب؟

ـ والنبي ما أنت عارف حاجة. بعدين أقول لك.

مرت لحظة صمت، وراء حضورك هذا أمر ما. في الجو رائحة خيانة. رغم هذا أود أن تبقي هنا، السخونة التي تنبعث من جسدك الطري، أدفأت جسدي. قلت إيه؟

نفيدكم بأن تركة الحاج منصور ستوزع بين أبنائه الثلاثة.

سرحان في إيه يا حسن؟

وهم حامد أبو الليل. وعيشة، وحسن منصور أبو الليل وذلك في تمام الساعة.

صاحت سكينة. أنت فين يا حسن؟ اكشفي عن وجهك يا حرباء، هل هذه حكمة أن يجتمع النقيضان، جمالها العظيم، جسدها اللدن، وما فيها من صفات الغدر والخيانة؟ دا أنت مش هنا خالص يا حسن. بودي لو أتخلص من هذا السر. وليكن ما يكون. أحب الحياة. أحبها إلى درجة الجنون، السر الذي أحمله قضى على حياتي، قالت في تثاقل: خليتك بعافية. تعمدت أن تريني فخذيها وهي تقف، مالت عليَّ، قبلتي، في قبلتها بقايا شباب ولى منذ زمن طويل. أجدني مشدودًا إليك رغم حبي لعيشة، سارت نحو الباب في تثاقل متعمد، أنت غالية والطلب رخيص، وكل شيء في بلدي رخيص، إلا حبي لعيشة وكل رخيص في بلدي موجود، وستوزع التركة علانية. وسكينة غالية. ولكني سأصير أحد الأغنياء.

* * *

حجرتي بمنزل الحاج منصور كما هي، ملابسي وأشياء نقلت من مكانها، الحجرة مظلمة ورطبة، كيف قضيت بها السنوات التي مضت من العمر، على كل حال هي مكان يحميني من نظرات المتطفلين ومن كلمات الشماتة والتشفي، حضرت عيشة إلى هنا. الحاجة طمان لن تدخل

عندي مهما حدث، الأستاذ حامد مشغول بشـــئونه أو ربمـــا بأحزانه عن كل الناس. حاولت عيشة أن تنفرد بـــي، كنـــت أتهرب منها، واجهتني بنظراتها الحادة والجميلـــة. تهربـــت منها، لو عرفت السر ما ألحت عليَّ، فيـــك وفـــاء طبيعـــي لوالدك هل يرضيك أن أدفع حياتي ثمنًا لهـــذا، لا يمكـــن أن يرضيك أن تكون الحياة هي الثمن، ليتهم ما أخرجوني مـــن السجن، كنت مستريحًا هناك.

* * *

ما فيش ولا دليل ضد أي حد فيهم، الحاج منصـــور أبو الليل أصبح مجرد ذكرى، كلمات تلوكها أفواه متعبة مـــع طعام بسيط في الجزء الأول من الليل، هات المسجون حسن منصور أبو الليل، ليست هذه المـــرة الأولـــى. لـــن تكـــون الأخيرة، ماذا تريدون؟ ألقوا القبض علـــى أحـــد العفاريـــت وسأعترف لكم بكل شيء، أريد أن أطمـــئن علـــى حيـــاتي، أفرجنا عنك يا سيدي، لم أع كلامه، تعودت الســـجن بصـــفة نهائية، عايزين واحد يضمنك ومن يضمن لي الحياة، أو حتى من يضمن الممات، وأنا أضمنه برقبتي، من؟ زهران، أنـــت شهم، نظرت إليه، أدرت وجهي إلى الناحية الأخـــرى مـــن

الخجل، أنت عظيم يا زهران. إحنا أخوات، عيب الكلام دا يا حسن.

* * *

لا، لن أستطيع، الحجرة مظلمة ليل نهار. أرسلت سكينة تطلبني أكثر من مرة، لن أذهب إليها، إلا بعد أن أحضر المبلغ المتفق عليه من الحقل، لن أذهب بدونه، ما قيمة كل ما يحدث، بل ما قيمة الحياة نفسها في هذه الحجرة المظلمة. سيظل هذا السر يعذبني حتى أموت. أود أن أحصل على كل ما أطلبه، ثم أموت بعد هذا. لن أستطيع مواصلة الحياة، وكل يوم يحمل لي آلامًا جديدة، الليل رحلة طويلة مع المجهول، السيقان الحديدية، تهديد العفريت، النهار عذاب مع العيون الجاحظة واللسان المدلى والرجل المسجي على مدار الساقية.

* * *

لا، لن أستطيع، أرسلت سكينة للمرة الثالثة. لا بد من الذهاب إليها، سأذهب إلى الحقل أولاً كي أحضر المبلغ، لتكن ليلة سوداء أهرب فيها من الحاج منصور والعذاب الذي أحمله على كتفي، في أثناء خروجي شاهدت عيشة، كانت

جالسة. سوداء وحزينة، حتى نور المصباح كـــان حزينًـــا، شاحبًا عليلاً، وقفت لم أتحرك، نظرت إليَّ طويلاً، لم أعرف أصلي، ولكني أحبك. أنت الشيء الوحيد الباقي من المرحوم، حكيت لها كل شيء، أنا في حيرة من أمري، حكمت علـــى نفسي بالموت الأكيد. عيشة لم تصدقني، لم تزدها حكايتي إلا حيرة فوق حيرتها. ضعفت بمجرد أن شاهدتها، خرجت بعد ذلك أسير على غير هدى.

* * *

تعال يا حسن، سكينة تنادي عليَّ. سأحضر المبلـــغ، سأعود لك بعد قليل، اليوم هو آخر أيام العمر، رايح فين يـــا حسن؟ لا بد من أن أسرع، شوية وجـــاي، الحيـــاة عـــذاب، الوصال عذاب عايزاك دلوقت يا حسن، عجزت تمامًـــا يـــا سكينة، ضياع جديد يضاف إلى ضياع الأصل.

ــ فركة كعب.

ــ رايح فين؟

ــ لغاية نهو.

تركتها وقد ظهرت على وجهها الشاحب بوادر خيبة الأمل، أنا منتظراك، كل شيء يضيع ويتلاشى، خمس دقائق،

تذكرت أنني بلا أم وبلا أب فحزنت علـــى نفســـي وعلـــى حياتي، أوعى تغيب، تذكرت أن الحاج منصور أبـــو الليـــل مات بالأمس القريب مقتولاً، وأن الحياة لا بـــد وأن تنتهـــي بالموت. وأن عيشة حزينة، حزنًا صامتًا لا يعلن عن نفســـه بالبكاء والصياح، وأن كل شيء قد تصدع مثل جدار جـــامع سيدنا تاج الدين، وتذكرت أن سكينة قد شاخت فجأة، فحزنت على نفسي وعلى كل شيء، ليتك قد أمسكت بي يا ســـكينة، الليل مظلم، لا شيء سوى الرياح، الظلام، حبـــات المطـــر، لابد وأن أحضر المبلغ، جسد المرأة جميل في الشتاء جـــدًا، ربما ساورني بعض الخوف، عليَّ أن أتقدم نحو الساقية.

بعد التحية، مقدمه لسيادتكم ابنكم حســـن، أرجـــو أن تعترف بأنني ابنك، المبلغ هناك، إذا كان والدك هو الحـــاج منصور فمن هي أمك؟ عرفت عيشة الســـر الـــذي عـــذبني طويلاً، ستقسم التركة بين أولاده الثلاثة، ثالثهم حسن منصور أبو الليل، من الغد لا بد وأن أنتظر قضائي المحتوم، مـــدت ست الدار يدها بالربع جنيه إلى زوجها، دا ثمن البيض بعناه النهارده. سأعيش هذه الليلة بـــالطول والعـــرض والعمـــق والارتفاع، المبلغ جاهز يا سكينة. الحقني يا حسن، يا خلـــق

هوه، لا تنامي يا بلدي، انتظريني يا سـكينة حتـى أعـود، تحسست سكينة جسد حسن أبو الليل الطري، قالت له: كانت فين الكنوز دي كلها؟ قال لها: ما كنتش فاضي خالص. قالت له عيشة بدلال: وأنت مالك؟ ضمنه زهران في المركز، قبلته سكينة في حجرة السجن، لم يكن معـي نقـوط للغازيـة، لا تناموا يا أهل البلد. تلك آخر أيام العمر الشقي، قالت سـكينة على سنة الله ورسوله، قلت لها بفرح: والمؤمنين. آمين، عما قريب إلى جوارك يا أعز حبيب.

* * *

ليرحمنا من بيده كل شيء.

ـ أنا حسن الأعرج. حسن منصور أبو الليل.

الحزن

الحزن

عيشة، يا خفق الفؤاد يا عيشة،
عيشة، يا نور العين يا عيشة.

* * *

ليست هذه المرة الأولى، التي أدخل فيهـا للسـجن، دخلته من قبل أكثر من مرة، ابتداء من غرفة الحجز بـدوار عمدة الضهرية حتى سجن مصر مـزورًا بنقطـة بـوليس التوفيقية وسجن مركز إيتاي البـارود، وسـجن المديريـة، مرحى بليالي الهناء. عما قريب سأعرف الطريق إلى قلبك. سنعقد معًا أعذب الصفقات، مع يعذبك لا بد وأنه الحنين إلى امرأة، أو فتاة بكر، فزوجتك التي منحتك خمسة من الذكور، وأربع بنات كالبدور قد ترهلت، تاهت معالم الجسـد فيهـا، ربما الحاجة إلى سيجارة منتفخة. سأصل إليك عما قريـب، سأدعك تسوي على نار هادئة. حكم أبدي لا بد من تنفيذه. لا بد وأن أظل على الجدار الخارجي لبلدتي كالنبت الشيطاني، كالطحلب الذي لا أساس له، لا أحد يحبني وإن كـان الكـل يخاف مني. لا بد وأن أظل هكذا في العراء، في حاجة إلى

نسمة دافئة. إلى كلمة حب، أنا هنا إنسان مسكين في حاجة إلى أي شيء صادق وسط الزيف الذي أصبح فيه، ارحمني هذه المرة يا سيادة القاضي، قتلته بحثًا عن النقود، عن لقمة العيش، أنتم ميزان العدل، اطلب رحمتكم، أنا مظلوم، إن حكمتم عليَّ بالسجن المؤبد فدلوني من أين يعيش القواد، وكيف تحيا البغي وبأي الطرق يبحث تاجر المخدرات عن رزقه؟ كلها كام سنة وتطلع في العفو. نظرت إليه باحتقار، محام كبير ومشهور، رد إليَّ نقودي، أتت بطريق غير مشروع، أنا قذر في نظركم، لماذا أخذت نقودي؟ هو أنا حاستنى العفو لسة؟ ممكن تدفع وتعمل استئناف، قلت بحماس الذي يود أن يعجل بالانتقام العظيم: أدفع من جنيه لألف. عما قريب سأخرج لكم، الويل لكم، من زهران الرفاعي، تلك هي إرادة الله، النار لا تخلف بعدها إلا الرماد، الشيخ عبد الحسيب الرفاعي، مأذون البلد وأكثر أهلها صلاحًا وتقوى، ينجب هذا المجرم زهران، كيف هذا يا رب؟ لا بد وأن لك حكمة في ذلك، شيخ ينجب مجرمًا، قالوا لي بحسرة لم لا تؤمن نصف إيمان أبيك؟ رضي الله عنه وأرضاه؟ قلت لهم ليس من المهم أن أكون مؤمنًا أو كافرًا، ولكن المهم بأي

شيء أؤمن، وقعت في عرضكم، أنقذوني يرحمكم الله، مصمصت الشفاه، تحركت الذقون في رفض لما أقول، استعاذوا بالله، طلبوا لي الرحمة، والشفاء مما أصابني لست مجنونًا، أنا فقط، زهران ابن عبد الحسيب الرفاعي.

لا تحاول أن تخيفني يا حضرة الصول، وقفت أمام أمثالك ألف مرة، أنت تعرف عني كل شيء، تعرف أن اسمي زهران عبد الحسيب الرفاعي، ربما دعاك والدي، رضي الله عنه وأرضاه، ذات مرة في إحدى لياليه الجميلة، كي تأكل مما آتاه الله، وتعرف ماضي عمري وأحلامي، ومشروعات المستقبل نحن في فصل الشتاء وهو موسم عمل بالنسبة لي، لا تعطلني أكثر من ذلك. دعك من كل هذه الميول الاستعراضية، كل أهل البلد يخافون منك حتى لو لم تقم بكل هذا، أنت تعتقد في أعماقك الخاوية أنني قاتل الحاج منصور أبو الليل. أقسم لك ما حدث ذلك. ولو حدث لقتلته ولفقت الجريمة لشخص آخر كما حدث كل مرة. لا يمكن أن تمتد يدي إليه بسبب عيشة فهي بالنسبة لي كل شيء. سكينة تمنحني كل شيء بسخاء وبدون مقابل، ولكن ما أطلبه هو

أنت يا عيشة، ربما كان هذا غريبًا، ولكنه يحدث، قد تكون سكينة هي الطريق إليك يا عيشة بعد أن فشلت كل الجهود.

* * *

لن أذهب بعيدًا عنك يا عيشة مهما كانت الظروف.

ــ إيه علاقتك بالحاج منصور أبو الليل يا زهران؟

قلت باستهانة:

ــ واحد من أعيان البلد الكبار..

قال بتحد مبطن بالخوف والخواء:

ــ قصدي العلاقة على أساس تاني.

ضحكت بسخرية:

ــ أساس إيه؟

قال بخوف فيه شجاعة الجبناء:

ــ كافية عبث يا زهران.

لم أرد عليه، أفصح عما عندك يا حضرة الضابط، كن صريحًا وابعد عن اللف والدوران.

ــ كان فيه شيء بينك وبين الحاج منصور قبل موته؟

ــ فعلاً.

ـ بالتحديد أنت طلبت إيد بنته عيشة؟

ـ عمل مشروع.

ـ أنا مش بناقش مشروعية العمل، أنا با سأل حصل ولا لأ؟

ـ حصل.

ـ إمتى؟

ـ مش فاكر.

ـ بالتحديد؟

ـ دا شغلكم. أنتم أعلم.

ـ كمل.

ـ الحكاية مش عايزة كمالة. رفض.

ـ ليه؟

ـ هو حر.

ـ حصل إيه بعد كدا؟

ـ هددته.

ـ هددته بإيه؟

ـ بأن ما حدش حياخد عيشة غيري.

ـ يعني هددته؟

ـ لأ.

ـ أنت راجل موش جبان.

ـ هددت اللي ح ياخد عيشة. التهديد ما كانش ليه.

لا تملك دليلاً واحدًا ضدي، لماذا تتعب نفسك، أحب عيشة. لا يمكن أن أقتل الحاج منصور حتى لا أغضبها. ما زلت حتى الآن أنتظرها رغم قتل والدها، الأمل معلق عليها، عيشة ليست الحب فقط، إنها بالنسبة لي الأمل والمستقبل والرجاء.

* * *

الليل مملكتي، النهار عدوي اللدود، الظلام محنة لكل الناس إلا أنا، أنه المناخ الملائم لي، أره ليالي الصيف المقمرة، أحب ليالي الشتاء العاصف، تلك التي تهب رياحها وتسقط أمطارها لدرجة الجنون، أكره الأرض الخالية، أحب موسم الذرة. أمارس فيه عملي بصورة منتظمة، اللهم اجعل كل أيامنا شتاء، وكل مزروعاتنا ذرة صيفي وشتوي، ونيلي، ولكن هل يرضى معاون الزراعة بذلك؟

* * *

سلمت عليه باحترام قبلت يده. قبلته أيضًا، كانت رغبتي هذه المرة صادقة بل نابعة من أعماق القلب. الحيرة قذفت بي إليك هذه المرة يا والدي فكن لي بر الأمان. أنا تبت خلاص. قال أحدهم: بعد إيه؟ هو الشيء بعد ما ينشرخ يتصلح. لست في حاجة إلى كلماتكم يا أهل السوء. كلمة واحدة منه هو، أريده أن يقبلني في بيته، تكلم أخيرًا، قلبي وربي غضبانين عليك. صحت فيه مقاطعًا: حرام عليك. ليه كدا؟ أكمل حديثه: إلى يوم الموقف العظيم. قلت له برجاء: دا كان طيش شباب يا با. لم يرد عليَّ. راح يهمهم بكلمات لم أفهم معناها. قد تكون دعاء عليَّ بأن أذهب إلى الدرك الأسفل من النار. أو ربما كان يستعين بأحد الشياطين عليَّ. قلت له بعد فترة. أنت نسيت أن ربنا هو الغفور الرحيم؟ قال بسرعة كمن كان يعد الجواب: وهو المنتقم الجبار في نفس الوقت. تساءلت بحزن: القرآن ما فيهش حاجة عن توبة المؤمن؟ قال بحدة: المؤمن؟ هو أنت مؤمن؟ أنت ما لك ومال القرآن؟ أنا واحد من المؤمنين. قال في غيظ: ليه سبت الكتاب اللي فيه كلام ربنا؟ غصب عني. نظر إليَّ كمن لا يصدق. أعرف أنك لن تصدقني حتى لو حلفت لك بكل

الأيمان. تزين طريق التوبة لكل الناس إلا أنا. قلت لهم من قبل أن الله هو الغفور الرحيم وعندما قلت لك نفس الكلام قلت لي فورًا أنه المنتقم الجبار. صمت قليلاً، يا ليتك قبلت توبتي في ذلك اليوم. كنت تود أن تجعل مني شيخًا كي أكون خليفة لك. لم يكن عندي استعداد لذلك. خلاص، نظر إليَّ بغضب: خلاص إيه؟ غفرت لي يا أبي. قال في ضراعة: أستغفر الله العظيم، غافر الذنوب هو الله، قلت بفرح الذي اقترب من أمله: قصدي سامحتني.

ــ لأ.

ــ ليه؟

لا يمكن أسامحك، قلبي وربي غضبانين عليك. قلت. بحزن، كده، قال الرجل بتحد وبقوة لم أعهدها فيه من قبل: أوعى تدخل البيت الطاهر دا خالص. لولا سمعتك في هذه البلدة لأرسلت لك صابرين إياها كي تكون شفيعتي إليك. ولكنك والدي مهما حدث منك. روح مطرود من رحمة الله تعالى. أبد الآبدين.

* * *

ــ أنت كنت فين ليلة قتل الحاج منصور؟

ضحكت من سذاجته:

ــ في الدنيا الواسعة.

لوح لي بقبضته:

ــ حدد مكان معين.

إلا تعرف أنه ليس مكان معين، لو لم أجد مكانًا لكنت القاتل مع أني لم أقتل أحدًا، فلأحدد لي أي مكان.

ــ كنت عند سكينة.

ــ من إمتى؟

ــ من أول الليل.

حركات استنكار، معذرة أيها المؤمنون، شرخ بسيط يحدث في جدار الإيمان السميك لدى كل منكم، قليلاً ويلتئم الصدع، ويعود كل شيء إلى مجراه الطبيعي، دعوني أسألكم كم واحد منكم رفضته سكينة وطردته من منزلها في النصف الثاني والأخير من الليل؟

ــ دا ملعون.

ــ هو يا أخي عنده دم.

تساءل الضابط:

ــ كنت بتعمل إيه عندها طول الليل؟

ـ كانت عيانة. كنت قاعد جنبها.

ـ هو أنت دكتور؟

قال أحدهم:

ـ أصل الدكتور في أجازة، وهو بداله.

تسخرون من زهران، سأعود لكم عما قريب، سأسمع منكم كلمات النفاق، مرة أخرى.

ـ الست كانت عيانة طلبتني رحت لها.

ـ عمل عظيم.

قال:

ـ النبي وصى على سابع جار.

ـ ألف رحمة ونور عليه.

تتحرشون بي الآن، لن يقدر هذا الضابط أو سواه على حمايتكم مني، تمسكون بي من موضع الألم، تقصدون أنني بلا منزل وبلا جيران، عندما أنام في العراء، لا يكون هناك من جيران لي، سوى بندقيتي في الناحية اليمنى. وطلقات الرصاص في الناحية اليسرى، فليبق لي هذان الجاران.

ـ أنت متأكد من الكلام ده؟

ــ طبعًا.

ــ طيب هاتوها.

ثم نظر إليَّ:

ــ استنه أنت جوه.

* * *

انتظرتها في الطريق إلى مسجد سيدي تاج الدين، ليلة الجمعة أقدر إخلاصك لسيدك يا حسن، ولكن الحب أعمى، لا يقيم وزنًا لهذه الأمور، ألقيت عليها تحية المساء، لم ترد، قلت لها كلامًا كثيرًا، لم ترد، حسن أبدى استياءه من هذا التصرف مني، معذرة يا حسن، أمثالك لا يعرفون عن الحب إلا أنه نوع من الخروج على المألوف في الحياة، أعرف عنه الكثير، تمامًا كما أن الجائع هو الوحيد الذي يعرف عن الرغيف أمورًا أخرى غير استدارته. وكما أن عابر الصحراء يعرف عن الماء أكثر من اللون والطعم والرائحة، أعرف عن الحب أمورًا أخرى كثيرة، تمعنين في الدلال يا عيشة، سأصبر مهما حدث منك. ستأتي لحظة تتنازلين فيها عن هذا الدلال، ربما انتظرتها عامًا. أو أكثر من ذلك، ولكنها قادمة على أية حال.

* * *

ـــ أنا ألقي عليك القبض بتهمة قتل الحاج منصـــور أبو الليل مع سبق الإصرار.

قلت له بهدوء:

ـــ أنت شايف كدا؟

كور قبضته:

ـــ هناك ح أعرف أخليك تعترف.

قلت:

ـــ يا ترى الضيافة ح تطول.

ـــ إن شاء الله مش راجع المرة دي.. وشرفي.

* * *

على ضوء عود الكبريت وضحت طيـــات جســـدها العاري، لا أحضر إليها إلا في الليالي التي بلا عمل، تعطيني كل شيء بسخاء، عندما أقبلها أذوق طعم الدخان في فمهـــا، ترهل جسدها بفعل الأيام، عندما أبقى معها حتـــى الصـــباح فإنها تبدو متعبة. في المرة السابقة انزعجت عنـــدما أغمـــى عليها وهي معي. زهران؟ انطفأ عود الكبريت أصبحنا نسبح في حجرة مظلمة. ماذا تريدين؟ لن أرد عليك، ساعة الحظ لا

يمكن أن تعوض. زهران؟ قلت بضيق: عايزة إيه يا سكينة؟ قالت بحب مصطنع عايزاك جنبي. لو نزل من السماء مـن يقسم لي على صدق حبك لأحد ما. ما صدقته، ما أنا معاكي آهه، قالت وهي تضمني إليها: عايزاك على طـول، قلـت بغباء: يعني إيه؟ غضبت في وقت لم يخلق للغضب، تناثرت حبات العرق ــ رغم أننا كنا في عز الشتاء ــ بين نهـديها وانزلقت إلى البطن التي عرفت الحمل مرات ومـرات، مـا أنت عارف، قالت: حا نعيده تاني، لا تفرقين بين أوقات اللذة وأوقات العمل، حياتك كلها صفقات، أنت الآن تحاولين عقـد صفقة، انتظري، بعد أن أنتهي منك سـأقول لـك الحقيقـة. شوفي يا سكينة، انتبهت إليَّ، أيوه يا روح سكينة، قلت لهـا: حكاية الجواز دي عايز أكلمـك فيهـا بصـراحة، جلسـت بجواري، كنا قد فتحنا الباب، كان هناك مسقط نور بسيط، ما زالت عارية، استندت عليَّ، قول يا روح روحي، عندما قلت لعيشة مساء الخير يا ست الناس لم ترد عليَّ، مسحتني بنظرة غضب، ولى شبابك يا سكينة، أنت بعد الأربعين، أنا لم أصل إلى الثلاثين بعد. ضاع جمالك، أنت الآن بقايا لبعض الليالي السود. قلت لعيشة في نفسي أحبك. أسرعت في طريقها إلى

مسجد سيدي تاج الدين، أنا طبعًا ما عنديش استعداد للجواز، خبطت صدرها. لم يبق في نهديها شيء يخبط، أمال كنت بتضحك عليّ؟ كم رجلاً تحسس هذا الصدر، صدر عيشة أحلى منه ألف مرة، كم رجلاً ذاق أحط أنواع الدخان من فمك عندما هم بتقبيلك، بطن عيشة متماسك، لم يعرف الحمل بعد، دا أنا اديتك نفسي كام سنة من العمر، هل نسيت زوجك الذي رموه في السجن منذ سنوات؟ ماذا سيكون موقفك منه؟ ماذا ستقولين له بعد أن يخرج إن كان مقدرًا له الخروج؟ ابكي على اللي صبح في الحي وحداني، بدأنا فصل النواح والبكاء، لا يوجد عندي أقل استعداد لسماع كلمة واحدة منك.

حياتي قصة ستكون حزينة الختام. اسمعي توقفت همساتها، مش عايز كلام فاضي، لم ترد عليَّ، تنتظرين الزواج مني. ولهذا لم تعامليني كزبون يدفع في كل مرة، كنت واهمة، لست على استعداد للزواج من واحدة أعطت نفسها لكل الرجال. عما قريب سيخرج زوجك من السجن، ويبدأ بيني وبينه فصل من الصراع بسببك أنت، هل ما زال يحمل في نفسه لك قدرًا من الحب؟ الحب. ولكنه الضيق، ما أفعله معك شيء أقوم به بحكم العادة. هروبًا من الفراغ، كل

حركات الدلال التي أسمعها منك شيء تقومين به بحكم العمل، تمارسينه مع كل الناس، دلوقتي بقى كلام فاضي؟ لم أرد عليها. ارتديت ملابسي في صمت. صمت مشحون مليء بالتوتر الحاد، ظلت عارية، استعديت للخروج من منزلها، أمسكت بي، في عينها شيء يبدو كالصدق، لن أصدقك، إذا قالوا يومًا أن للحرباء لونًا واحدًا فسأصدق أن الحب قد عرف طريقه إلى قلبك، برضه أبقى تعال، قلت: وحا تقلبيها غم، قالت وهي تمسح دموع الزيف، لا. أوعدني، عيشة بكر، لماذا يشيخ الناس ولا يموتون وهم في عز الشباب، حكمة الشيخ هراء أكيد، قوة الشباب لا يعدلها شيء، تلك هي حكمة الله.

* * *

رفضني الحاج منصور أبو الليل، ذهبت إليه طلبت منه يد عيشة، كنت شجاعًا، سلمت عليه سلام الرجال، الند للند، كان أبوك رجلاً طيبًا يرحمه الله، تعيش أنت، أن مصدرًا للصلاح والتقوى في بلدتنا، خلف لنا الشيخ مسعود، والشيخ مسعود أحد مريديه وليس ابنًا له، كان أولى بك أنت أن تكون مكانه، حكمة ربنا، حضرت لطلب ابنتك وليس

لسماع موعظة عن الحياة والموت، كنت أحب والـدي لحـد العشق، فعلت الممكن والمستحيل حتى أحصل على رضـاه. ولكنه أغلق قلبه دوني. لست أدري من المسئول، أنا أم هو؟ أم أن هناك ظروفًا أخرى قد تسببت في هذا، بلدتنا في حاجة إلى رجل مثله، لا أصلح لذلك، ابحثوا لكم عن رجل آخـر، الشيخ مسعود لا يصلح، دعنا من كل هذا يا حاج.

ــ هل الصفقة لا تعجبك؟

أنت خير من يعرف المساومة في بلـدتنا، أعتبـرك أستاذي.

أمارس عملي في الخفاء وفي الليالي المظلمة، أنـت تمارسه علنًا وبعلم الكل، نحن متفاهمان على هـذا، تفاهمًـا صامتًا لم تقل خلاله كلمات.

ــ وبتشتغل إيه يا سيد زهران؟

عملي ليس خافيًا على أحد، أنت وغيرك تعرفه، أنت الوحيد الذي لم تحاول أن تستعين بي، لقضاء حاجة، لأنـك خير من يقوم بهذا العمل، ما أنت عارف يا با الحـاج، قـال برجولة حسدته عليها:

ـــ قصدي بتاكل منين؟ يـــود أن يـــرفض بطريقـــة مؤدبة.

ـــ لا فائدة معك، أنت رجل قوي، أنا أدرك هذا. أنا عايش من شغلتي.

ـــ إيه هيه؟

ـــ ما أنت عارف يا والدي الحـــاج، قـــال بصـــوت ممتلئ:

ـــ طيب قوم.

لم أتحرك، أين شجاعتي؟

ـــ قوم.

وقفت، لست أدري كيف حدث هذا.

ـــ انجر من هنا.

قلت بدون وعي: على العموم أنا أولى بيها. أنا ابـــن البلد. لو حد خدها غيري لازم أموته. أقتلـــه، فـــاهم، ثـــار الرجل، أعترف أنه قوي، خفت منه في بداية الأمر ولكنـــي تشجعت.

ـــ أنت عارف لو شفتك هنا، حا أنفيك، حا أرحلـــك. امشي.

انطلقت من فمي كلمات تهديد، هددته بالقتل، هددته بحرق زراعته وسم مواشيه، هددته بكل وسائل التدمير التي أجدتها على مر السنين، ولكن الشيء الوحيد المؤكد أنني بعد أن ذهبت بعيدًا عنه شعرت بطعم الهزيمة، هزمني الرجل، كنت خائفًا منه، ولو زوجها لرجل سواي فلن أفعل أي شيء، أنا أخاف منه، إنه أقوى الرجال هنا، مضت عليَّ ليلة من أسود ليالي العمر ولولا أنني أمضيت أغلبها مع سكينة لما مرت بسلام.

* * *

حضر إليَّ الشاويش فتحي، طلب مني شيئًا يضاعف من قدرته مع زوجته، ستحلو لنا معًا ليالي الأنس، شاهدت في عيني زوجتك نظرات الشك في قدرتك، أعطتك ظهرها، بدأت ترى نوعًا من الذبول في جسدها. لو لم تعالج الموقف بسرعة لعدت ذات ليلة لتجدها بين أحضان رجل آخر، طعم الخيانة هو أجمل شيء بالنسبة لامرأة أعطت نفسها لرجل واحد وعشرين عامًا من العمر. حسن الأعرج بجواري لا بد من الاتصال به، المرة الأولى التي يدخل فيها السجن أشاعوا في بلدتنا أن له دخلاً في قتل الحاج منصور. بالاتفاق مع

الحاجة طمان، لا يمكن أن أصدق هذا الكـــلام، تلـــك هـــي فرصتي كي أوثق علاقتي به، سأحتاج إليه بعد خروجي من السجن، سأواصل الطريق مع عيشة، عندئذ، لا بد وأن يكون حسن الأعرج أكثر نفعًا لي، الشك في عيني الشاويش فتحي يزداد. لا تغضب.

* * *

قتل الحاج منصور أبو الليل، لا بد وأن تمتــد لـــي بعض المتاعب، هددته في الأسبوع الماضي، هددته بالقتـــل وبأمور أخرى، لم أكن أعني التهديد بالفعل، كنت أقــوم بـــه كنوع من الدفاع عن نفسي الجريحة. لم أكن أقدر على قتله، ولا حتى على الاقتراب منه، ليتني ما هددته يومها، كان من الممكن تسوية الأمور بطريقة أخرى غير التهديـــد، وجـــدوه مقتولاً عند الساقية عقب ليلة من العمل في الحقـــل، لســـانه مدلى، عيناه جاحظتان، لا أؤمن بالعفاريت ولا بالجن، الكـــل يقولون: إن عفريت عبده هو الذي قتلـــه، حســـن الأعـــرج صامت لم يقل شيئًا، لم يفلح المحقق في أن ينطقه بشيء ما، هو الوحيد الذي كان مع الحاج منصور أبو الليل في الحقل، كيف لم يشاهد مثل هذا الأمر؟ لا أحد هنا يجرؤ علـــى قتـــل

الحاج منصور، حتى أنا لا أجرؤ على مجرد التفكير في هذا، كيف تفكرين الآن يا عيشة، لا بد من توضيح موقفي لها. قد تشك في أنني الفاعل. أحبك، تلميذ الأزهر كان يحب والدي، كان يجلس أمام منزلنا يومًا بأكمله في سبيل أن يقبل يد والدي، يربطني بك شيء من هذا النوع يا حاج منصور. دلوني على البطل الذي قتل الحاج منصور كي أعقد معه صفقة عمل مشترك، لا بد وأنه يفوقني في العمل، عنده قدرات أخرى لا أعرف عنها أي شيء، يرحمك الله يا حاج منصور، موتك يعني أمرًا واحدًا بالنسبة لي، يعني أن مشروعي لا بد وأن يتوقف عامًا، عام الحداد، لا بد وأن بياض عيشة سيكون جميلاً وسط الثوب الأسود، أقسم لك يا أغلى ما في الحياة أنني لا دخل لي في هذا الموضوع، أن الذين يحبون يا عيشة لا يعرفون شيئًا غير الحب، أود أن أعرف منك السر يا حسن، ربما أصبح الطريق إليك بعيدًا يا عيشة، لو كان القاتل عفريتًا لما خفت منه، كان لوالدي عفاريت يحدثهم طيلة الليل. لا أؤمن بهم، أمارس حياتي بالليل، لم أعرف العفاريت، كثيرًا ما سهرت على ساقية الحاج منصور. لم أر عليها أي شيء، الليلة كانت مقمرة.

العفاريت لا تبدو إلا في الظلام عند حسن السر. لا بد من معرفته. لا بد.

* * *

رفضني إخوتي، يخافون مني، يرفضون أي شيء أقدمه لهم، لم يبق سوى أمي.

ـ يا أمه أنا عايز أعيش معاكي.

ـ المرحوم مات غضبان عليك.

قلت لها:

ـ الحي أبقى من الميت.

نظرت إليَّ بحزن:

ـ والله الشيخ كان عنده حق، الله يرحمه.

ـ يعني عاجبك كدا.

قالت بحدة:

ـ لا أنت ابني ولا أعرفك.

ـ حتى أنت.

ـ المرحوم مات وهو غضبان عليك.

ـ هو المرحوم دا كان ربنا.

ـ أديك شايف غضبه عليك.

لا فائدة من محاولة العودة إليها، أود أن أعيش معك، ماذا يغضب المرحوم في هذا، أود أن أنفق عليك، أنت تعيشين على الكفاف، هل يرضيك أن أقلق المرحوم في قبره يا زهران؟ شقيقي الأصغر يعمل كاتبًا في الجمعية التعاونية، أكبر حرامي في البلد، وجودك معي يعطي الحياة معنى ما.

ـ طيب خدي دول.

ـ إيه دول؟

ـ فلوس تصرفي.

رمت بهم بعيدًا.

ـ حرام عليك، مش كفاية أنت، عايز تجرنا كلنا معاك.

لم تقبل مني مليمًا واحدًا، أنتي حرة، حكمت عليَّ أن أعيش في المنفى بقية أيام العمر، منفاي ليل طويل، ليل لن يشرق بعد نهار، ليل ظلامه لزج، سامحك الله.

* * *

أستطيع الآن أن أصدق أن للحرباء لونًا واحدًا، وأن أصدق أن الطبيعة قد رحمتها القدرة على تغيير لونها بتلك السرعة. الزواج منك يا عيشة ليس رغبة، إنه الطريق نحو

الأمان، ربما كان فيك قدرة ما يا سكينة، ولكنك لا تصلحين لحياة قد تطول، جسد عيشة جميل، أجمل ما فيه إنه بكر، نهداها لم يعبث بهما أحد. ما زالا في تماسك ثمرة الجوافة قبل أن تسقط من على الشجرة. أجد مع سكينة الأمان خاصة في بعض الأوقات العصيبة، في ليالي الفراغ، غير صحيح أن تحضر سكينة لزيارتي في السجن.

ـ مش عايز تقول على اللي قتله يا زهران؟

ـ ألم أكن عندك ليلتها؟ اسألي الجدران الكالحة، أو مياه الاستحمام، أو حتى النافذة التي يسمع من خلالها الأهالي كل شيء.

والله ما نا فاكرة، مرت فترة صمت، يجب أن أعتذر لك يا سكينة عن آخر ليالينا معًا، كنت كريمة معي، لو أدركت حقيقة مأساتي، لوجدت لي ألف عذر، نحن لا نحصل إلا على الأمور التي لم تفكر فيها، ليس هذا هو الوقت المناسب للاعتذار.

ـ يعني أنت مش عارف مين اللي قتله؟ قلت في ضراعة:

ـ يا ربي، اقتربت مني في دلال.

ـ أطلع من دول، أشعلت لي سيجارة.

ـ أنت لازم تعرف يا زهران.

ـ لا. لا أعرف، يبقى لازم واحد من بتوعك، لم أقم بعمل شركة لقتل الناس بعد.

ـ صارحني يا زهران، لا بد وأنك عينت للعمل مع رجال البوليس.

أمرك غريب يا سكينة كان الحاج منصور أبو الليل مصدر متاعب بالنسبة لك، لم يكن هناك من يجرؤ على الدخول عندك إلا بعد قيامه من مدخل الحارة.

ـ مخبي عليَّ؟

ـ ماذا يهمك في هذا الموضوع؟

ـ إذا كان هذا الموضوع يهمك أصارحك.

ـ عايزة أطمئن نفسي أن الراجل بتاعي هوه اللي قتل الحاج منصور أنت عارف أنا با كرهه قد إيه.

ـ إذن حاولي معرفة القاتل من ناحيتك كي تعطيه الحلاوة. تعلمين أنني طلبت يد عيشة عقب ليلتنا إياها، لم تفاتحيني في الأمر بعدها، قلت معصعصة، قلت أيضًا أنها لا تتحمل ليلة واحدة، قلتي لي أنها على علاقة بفتحي زميل

حامد في المدرسة، تحاولين أن تفهميني أنها لا تصل إليـــك، وأنت لا تغارين منها، أنت جوفاء يا سكينة، بعت كل شـــيء في أرخص الأسواق، بعت أشياء أنت في أمس الحاجة إليها، أكرهك، صبحية خروجي من هنا سأذهب إليك فـــي وضـــح النهار، سنمضي معًا لحظات من القلق والجنـــون، لا أجـــد عندك أي شيء، ولكن لا يوجد هنا ســـواك. كانـــت تـــدخن بعصبية.

ــ سبتك بعافية.

ترهلت، تقدمت في العمر، أيام قليلة غيرتها، لا بـــد وأنها تمارس عملها بكل حرية، ذهب الحاج منصـــور أبـــو الليل وخلا لك الجو يا سكينة، لا يوجد من يقف أمامك، لـــو تكلم حامد وهو كالبنوتة في نظرك، ليلة منك كفيلة بإســـكاته على الأبد، أود أن أعرف السر الذي يربطك بالشيخ مسعود، كان أقرب الناس إلى والدي، أنا لا أشك فيه، لو ذهبت إلـــى المدرسة لن أدرس سوى الحرباء، فهي الشيء الوحيد الجدير بذلك.

* * *

قالوا إن المرحوم لا يود أن تسير في جنازته، أنه والدي ــ هذا حق من حقوقي قال أحدهم: لو سرت في الجنازة لامتنع المرحوم عن السير وتوقف نهائيًا. بل ربما طار نعشه في الهواء، قال المرحوم لهم ذلك قبل أن يموت، وقالت لهم العفاريت ذلك أيضًا، لن أقف في الطابور كي أتقبل العزاء من أهل البلد. عظم الله أجرك، دلوني يا أهل الضهرية كم رجلاً نظيفًا فيكم؟ شكر الله سعيك. أصبحت أكرهكم، عندما يقبل موسم القمح سأشعل قطعة من النار في ذيل كلب كي تتحول البلدة كلها إلى قطعة من الجحيم، لا بد وأن يكون هذا الكلب مجنونًا، وقفت فوق شجرة جمير عاقر. لم تزهر فيها ثمرة واحدة. لو أزهر فيها شيء، لن يكون سوى الحزن. شاهدت النعش من بعيد، كأحد الغرباء. كان المشهد طويلاً، خرج كل أهل البلدة، هل أوصيت بهذا حقًا يا والدي؟ عند أهل الدين نوع من الرحمة. أين هي؟ حرمتني حتى من هذا. لم؟ عليك كل رحمة الدنيا. أنا واقف فوق شجرة عقيمة أشاهد مشهدك، طلب إبعاد ابنه عن مشهده. كل الناس تسير خلفك إلا أنا.. يرحمك الله.

* * *

ليلة الحظ لا يمكن أن تعوض، هي العزاء، بل ربما كانت البلسم، ارقصي يا غازية الضياع. أكثروا من طلقات النار، وأطفئوا الأنوار، هذا موسم كساد سأعطيك كل ما معي، اقتربي مني. في بعض الليالي أحمل نايًا حزينًا، أرسل عليه بعض الآهات، السيجارة التي في يدي ليست معمرة، إنها سيجارة عادية، كل ليلة أقضيها في إحدى البلاد كالكلب الضال، وسيلة المواصلات هي قدماي، ابن ليل. جازاك الله كل خير يا والدي. أيام السجن تعد نوعًا من الراحة لي، أو كما يسميها الموظفون نوعًا من الأجازات.

أفرجوا عني اليوم، دفعت الكفالة التي طلبوها. لو بحثت في الدنيا كلها من شخص يضمنني لما وجدت شخصًا على استعداد لذلك، خير لي أن أقتصر الطريق. لو لم تكن معي الكفالة لبقيت هنا إلى آخر أيام العمر. يحاول الضابط أن يفهمني أن خروجي كان منحة منه، أخرجتموني لأنكم فشلتم في إدانتي. أود أن أعاونكم في الوصول إلى القاتل، شربت من الصعلكة. حتى لم يبق لدي مكان أشرب فيه المزيد، تعبت من حياتي، أريد أن أستريح، مضى عليَّ وقت طويل لم أر فيه ضوء النهار. لم أشعر بمعناه أو حتى

بطعمه، ضمنت حسن الأعرج وخرجنا معًا، قرأت في عينيه نوعًا من العرفان بالجميل. سأحتاج لك قريبًا. حاولت أن أعرف منه السر، فزع مني بمجرد أن وجهت له السؤال، شاهدت سكينة خارجة من عندك يوم أن كانت في زيارتي، هل بحت لها بالسر؟ نحن رجال وأود أن أعرف منك السر، كي أنتقم لكم، هل أنت ابن الحاج منصور أبو الليل حقيقة؟ كن ابن من شئت. ولكني أود معرفة السر، أنت أحسن مني حالاً، لك حجرة مظلمة، في منزل الحاج منصور أبو الليل، أنت قريب من عيشة، هي التي تقدم لك طعام الإفطار كل يوم. (يعطي الحلق لمن لا أذن له). وداعا أيها السجن، بيننا معاهدة نحافظ عليها بكل دقة. ربما كانت أكثر احترامًا من كل معاهدات هذا العصر اللعين.

* * *

حدث شيء غريب..، الغفير محمود مصطفى البرادعي ذاهب إلى الضابط، قال: إن عنده أقوالاً تفيد في القضية، كان محمود حارسًا على جثة القتيل، أي سر تخفيه يا محمود. بمجرد أن يعود سأذهب إليه، ستكون رأس القاتل هي مهرك يا عيشة، حتى لو كان القتل هو العفريت.

* * *

لم يخرج حسن الأعرج من المنزل، لن أرسل في طلبه حتى تحوم حوله الشبهات، طال انتظاري يا حسن، أكثرت من مروري أمام منزل المرحوم، أصبح الحاج منصور أبو الليل مرحومًا، الحارة لا قيمة لها بدونك يا حاج منصور، أحد الأيام والليالي في انتظار خروجك، السر الذي تحمله خطير، سأنتظرك يا حسن، عندما ألقوا القبض عليَّ فرح الجميع، لمحت بسمة الانتصار على وجه حضرة العمدة وبطانته، كانوا يعتقدون أنني لن أعود لهم، سأقلق حياتكم يا جبناء، حاولت أن أمد لكم يدي. فشلت كل محاولاتي، ما ذنبي! عدت لكم، سأظل التهديد الحقيقي لكل منكم، سأتجول في الضهرية على حريتي وأثخن من فيكم يتعرض لي، أصبحت لا أبالي بأي شيء، حتى الحياة نفسها، زرت عيشة، كنت داخلاً لحسن، وجدتها، لم تعطني وجهًا، كلماتها مبتورة، أحبك يا عيشة رغم كل شيء، الطريق إلى قلبك أصبح بعيدًا، لم يكن في موقفك رفض، لم يكن فيه أيضًا قبول. عندما هممت بالخروج كانت على شفتيها ابتسامة. أول الغيث قطرة ثم.. أكمل يا شقيقي الأصغر، يا كاتب الجمعية. أصبح عندك

خمسة أفدنة، لا أدري من أين جئت بها؟يبدو أنك لا تحترم ذكرى والدك الذي كان من أهل الصلاح والتقوى في بلدتنا. حضر حامد من دمنهور، حمدًا لله على السلامة، هو المنافس الوحيد لي، يقولون: إنه حضر كي يأخذ بثأر والده، شاب غامض، أكرهه، أكره الحاجة طمان.، حتى الآن لا أتصور أنها أنجبت عيشة الجميلة، لو حضر كل من في المركز فلن يأخذ بثأر الحاج منصور غيري أنا. وعدت عيشة بذلك. وعد الحر دين عليه. لو سمعت كلام المرحوم لصرت شيخاً كبيرًا، ضحكت في وجه الشيخ مسعود. بل ربما كنت الآن مثل أخي، كاتب الجمعية، لا أحب أن أكون.أنا راض عن نفسي يا فضيلة الشيخ، كفانا بكاء على نفسي وعلى بلواي. " قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ".

هذه أيضًا حفظتها منذ أن ذهبت إلى الكتاب، قبل أن أهرب منه، قضى أمرك يا زهران، إنه المكتوب، أكره حياتي، أكثر من كراهيتك أنت لها، ولكن قبل أن تسألني دعني أعرف منك لماذا تتردد على منزل سكينة، ترد لها دينها. هيه. لم يعد عندها مكان لدين أو خلافه، أين ذهب دم

عبده؟ قتل عند ساقية الحاج منصور أبو الليل، أين كنت أنت يا مفتي الديار؟ يا حامي حمى الفضيلة على الأرض؟

* * *

فعلت المستحيل مع سكينة، ولكني فشلت. كانت قد تجردت من ملابسها بدت خطوط الزمن واضحة، عندما تأكد لها فشلي كانت قد اقتربت من حافة الجنون، مزقت جسدي. بحثت عن الرجولة في أعماقي. كنت في عالم آخر، جسدي لم يكن معها، بعد أن تركتها عارية، ترهلت. لهثت كثيرًا. يبدو يا عيشة أن خلاصي كامن فيك.

ـ تقيد الجريمة ضد إيه؟ الحياة أمنية. الموت أيضًا أمنية. هو ما فيش غيره العفريت. هناك خطر حقيقي يتهدد الضهرية. ضد العفريت، عفريت سي عبده، هذا الخطر أعمق من قتل الحاج منصور أبو الليل، يهددنا كلنا، نحن أهالي الضهرية، نطلب منكم الانتظار لحين التفاوض وإلا فإننا سنضطر آسفين.. قيدوها ضد أي شيء. عفريت عبده أو عفريت آخر. ولكني لن أكف عن البحث. لا بد وأن آخذ بثأر الحاج منصور أبو الليل.

* * *

قتل حسن الأعرج.

ماذا تخفين وراءك يا ضهريتي، يا حزينة؟! تبـــدين بعد الحاج منصور أبو الليل وكأنك يتيمة بـــلا أب وبـــلا أم، اسأليني أنا عن معنى اليتم والحياة في العراء، قتـــل حســـن الأعرج، قد يكون فقد الحياة أمنية، وجدوه ملقى علـــى دوار الساقية. قتل مخنوقًا وجدوا لسانه خارجًا من فمـــه. عينـــاه جاحظتان تحدقان في سماء صامتة، شــــيء آخـــر غريـــب، وجدوا إلى جواره خمسة جنيهات طبقت لأصغر حجم ممكن، كيف حدث هذا يا حسن؟ متى خرجت من المنزل؟ وذهبـــت إلى القبر بسرك يا حسن. ليرحمك الله.

* * *

فليكن من يكون المعتدي، لا بد وأن أتصـــدى لـــه، زهران الوحيد اللي يقدر أن يقف للعفريت، ترى على مـــن الدور يا بلدي. كلنا مهددون بالقتل، ما عفريت إلا بنـــي آدم. أنا فداك يا بلدي. لم أجد منك إلا الجحود والنكران، نحن في موقف لا يصح فيه العتاب، أنت الفرصة التي انتظرتها منـــذ طفولتي وصباي، لم تبدين هكذا يا عيشة تحملين فوق كاهلك جبلاً من الهموم والأحزان؟ كل هذا الحزن على حسن، أنـــا

مستعد أن أموت كي أحظى بمثله، لو كان والدي موجودًا لما حدث لنا هذا، يا حضرة الضابط أنا مستعد أعمل أي حاجة، كان عند والدي في المنزل عدد كبير من هذه العفاريت، سيادتك تؤمن بالكلام ده، لا، مات والدي غاضبًا عليَّ، عزمت على التوبة، لا بد من الذهاب إلى الساقية، من سيحضر إلى هناك سأقتله، يمكن يكون العفريت يا زهران، سأقتله.

حملت بندقيتي، وأنا أضحك على نفسي، قال الشيخ مسعود: ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط، الرصاص لا يؤثر على العفريت، الشيخ مسعود منافق، لا بد من الانتقام، عشت كل السنوات التي مضت من العمر في العراء قد تمتد يد العفريت إلى بلدي، قد تمتد إلى عيشة، هنا يهون العمر وكل شيء في الدنيا.

* * *

كن شفيعي عند والدي يا سيدي الشيخ مسعود، طردك والدك من رحمته وانقضى الأمر، أنت أقرب الناس إلى والدي. كلمه وسيزول كل شيء، إنه والدي رغم كل ما حدث، سقت عليك النبي، لعنك والدك، أصبحت مطرودًا من

رحمة الله وانقضى الأمر، أنا كالكلب الضال، بلا أسرة، أنت لم تجرب الضياع بعد، ابعد عن طريقي يا زهران، لا تخرب بيتي، هل يرضيك أن يموت إنسان ما شوقًا إلى كلمة حـــب؟ إلى لحظة حنان؟ إلى دفء أم؟ على عطف أب؟ جـــزاك الله كل خير يا سيدي الشيخ مسعود، أنا لا أقوى عليك، لـــو لـــم تبتعد عن طريقي لأحضرت لك من يستطيع أن يوقفك عنـــد حدك، لم يعط الله كل هذه القوة لكافر مثلك ألحد وصرت، لا تغلق باب الرحمة، الله غفور رحيم، لم أفقد الأمل بعد، كلمة واحدة منك في لحظة من لحظات الصفاء، ويزول كل ســوء التفاهم، وتعود المياه إلى مجاريها، ربما كنت شيخًا صـــالحًا ذات يوم، سيكون لك عند الله خير الجزاء. رفــض الشـــيخ مسعود. استغاث بالناس، قال إنني تهجمت عليه، أحـــاول أن أسرقه، حتى أنت تكذب يا شيخ مسعود. أحد تلاميـــذك يـــا والدي يكذب، تعال كي تضبط هذا الخطأ العظيم، حاولت أن أسافر إلى كفر الدوار للعمل هناك، لم تكـــن معـــي نفقـــات السفر، أعادوني من التوفيقية، قضي الأمر، مرحى يـــا ليـــل الضائعين، قضي الأمر وصرت صعلوكًا، لا حياة لي إلا في جنباتك سنعيش معًا نضاجع الخطيئة. وندخن الضياع ونثرثر

الغربة، عقد قراننا الليلة، ليلة سوداء، قتل محمود مصطفى البرادعي وجدوه مقتولاً على دوار الساقية وبجواره بندقيته وذخيرته وخوله، القاتل واحد في جميع الحالات، اقترب الآن من الساقية. ما هذا؟ الله المستعان، طلب المرحوم ألا تسير في جنازته، مساء الخير يا ست الكل، السكوت علامة الرضا أهل زمان قالوا لنا كده، الليل مملكتي، بلدتنا كانت مملكة الحاج منصور، قتل الحاج منصور، سلمت عليه باحترام، والدي العزيز.. والدي العزيز.. أنت السبب في كل هذا. دمت لنا. كن لي بر الأمان. قلبي وربي غضبانين عليك. طردت من رحمة الله، أخي كاتب الجمعية. سكينة مسكينة عيشة لم ترد عليَّ، اقترب الآن من الساقية. قتل الحاج منصور، كن شفيعي، طلب والدك ألا تسير في جنازته. حضرة المحترم الوالد. لم طلبت ذلك؟ لم ظلمتني؟ أحبك رغم كل هذا. اقترب من الساقية.

ما هذا؟ الله المستعان. الله المستعان، عبد الحسيب الرفاعي والدي. أنا زهران. عيشة حبي. سكينة بقايا الليالي السود، العفريت، الساقية. أنا زهران.

طرح الأسئلة

طرح الأسئلة

أنا حامد

حامد منصور أبو الليل أطلب العلم في دمنهور، يعذبني البحث عن أمور أخرى.

* * *

قالوا إننا في عصر الصواريخ، صحت فيهم، لن أصدق أن والدي الحاج منصور أبو الليل قد مات، مات مقتولاً، غير صحيح أن يقتل الحاج منصور، من الذي يجرؤ على قتله؟ أنا على استعداد أن أصدق أن الأرض ستفنى أو أن الشمس أحرقت كل شيء، خارج مجال الجاذبية الأرضية، قد أصدق كل هذا، ولكني لن أصدق أن الحاج منصور قد قتل، نحن في زمن تحدث فيه كل الأعاجيب، كانت الشمس الذبيحة قد اقتربت من أفق دموي حزين، الحمد لله، سأموت الآن وأنا مستريح الخاطر، هادئ البال، أنجبت رجلاً، كان هذا ينغص عليَّ حياتي، القتل معناه إن إنساناً يموت، كانت الحياة ستكون نوعًا من الجحيم لو تركت عيشة تواجه الحياة بمفردها، أسرع في النمو يا حامد كي تكون

رجل البيت من بعدي، كل لحظة تمر من العمر تبعدنا عــن الحياة، سأترك الأرض والاسم والجاه وأجمــل فتــاة فــوق الأرض على شريط أن تكون غنية ومن عائلة محترمة، كل لحظة تمر من العمر تقربنا من الموت، تبدو خجولاً يا حامد، في عيشة جرأة أكثر منك، مع الأيام ستتعلم الشيء الكثيــر، حفظك الله يا حامد، أحضروني اليوم من دمنهور، قتل والدك عند الساقية وجدوه مقتولاً ذات صباح حزين، كــان يــروي الحقل مع حسن الأعرج، كان لسانه مدلى، عيناه جاحظتــان، ملقى فوق دوار الساقية آخر ساقية بناهــا أبــي، أرضــه لا تحدها حدود، لا أعرف عن صفقاته الشيء الكثير، كل أرض بلدتنا ملك له، كل حيرة تقذف بي إلى حيرة أخــرى أعمــق منها، مات أبي، مات مقتولاً، عليَّ أن أستعد من الآن لأعوام من الحداد والحزن، قد يطالبونني بالأخذ بثأره، ربما كنــت بعد ساعة من وصولي أحمل بندقية في محاولة للبحث عــن القاتل، لا بد وأن هذا القتل وهم من الأوهام التي يتعاطاهــا أهل بلدتي.

* * *

عندما يتدلى الإنسان حتى القاع يتساوى كل شـــيء أبويا انقتل يا فتحي، قال بصوت حزين: شيء غريب، كـــل شيء هنا غريب، لا بد وأن أكفر بكل شـــيء مـــا دام فـــي الضهرية لسان مدلى وعينان جاحظتان وجسد متصلب تفوح منه رائحة نتنة، أنا مسافر، كلنا مسافرون إلى جهة مجهولة، مش ممكن أسيبك تسافر لوحك يا حامـــد، طـــرح الأســـئلة الحائرة هو الشيء الوحيد الذي تبقى لي، أنا خايف تتـــورط هناك في أي حاجة يا حامد، قالوا لي كذبًا أن الطبيعة مليئـــة بالإجابات الجاهزة. بقى أن تطرح الأسئلة، جايز يقولولك خذ بتاره، السؤال الخالد الآن. كيف مات منصور أبو الليل؟ ومن الذي قتله؟ دا لازم يحصل ولكن كيف؟ إن لـــم يكـــن ذلـــك برغبتي ماذا أفعل أمام أهل البلد، دا كلام فاضي، فـــي هـــذه الحالات يتساوى كل شيء.. تساوى الأقفاء والوجوه، الحيـــاة والموت، الوجود والعدم أنا في موقف حرج، محتار، لم أجد الكلمات كي أرد عليه، حدد موقفك يا حامد، تهت بين جنبات الصمت، بدت الكلمات كبر أمان من المســـتحيل الحصـــول عليه، الصمت المحير الجياش، الصمت الملـــيء بصـــنوف القلق والعذابات.

ـ أنت خايف من إيه يا حامد؟

ـ أنت تتحدث من الخارج يا فتحي، تقدر أن تكون مجرد مشاهد لمأساة أنا أحد أفرادها، لن أقول أبطالها، أنا لست بطلاً، شئت هذا، أو لم أشأ، هذا أول امتحان لي، العلم لن يفيدني شيئًا، من لي بجلد الحرباء، أو ناب الذئب، أو شجاعة زهران الرفاعي، أو على الأقل قدرة الثعلب على المراوغة في حقول الذرة.

* * *

عصر اليوم الخامس لوصولي إلى الضهرية. الشمس تغطس عند حافة الأفق، نصفها الأسفل قد ذاب في مياه الترعة، النصف الباقي ينتظر دوره في الموت والذبول، تموتين يا شمس اليوم دون كلمة وداع، دون تنهيدة حزن، تموتين دون أن تجدي من يدفنك في الأفق الغربي، معذرة أنا مشغول بأمور أخرى، أنا سائر إلى الساقية التي قتل عندها والدي، أحمل على كتفي بندقيتي، في يدي اليمنى أعيرة نارية، سأقتل العفريت، سأنتقم منه، حتى البندقية مبطنة بالخوف مثلي، لا بد مما ليس منه بد.

ـ أنت ما تتهمش حد يا أستاذ حامد؟

فكرت. أتهم من؟ أصابع الاتهام من الممكن أن توجه إلى كل الناس، لا. لا، تعتقد مين القاتل؟. ساعدنا أرجوك، كنت في دمنهور، ما حدث لهم لم أكن أتوقع حدوثه، حسن وهو الوحيد الذي كان معه صامت، لن يفضي بسره لأحد. ربما كان زهران هو القاتل ولكني لا أملك دليلاً واحدًا ضده، قلت إيه؟ لا أعرف.. مصيبتنا جميعًا أننا لا نعرف حتى أنت يا حضرة الضابط لا تعرف. كل شيء لا قيمة له.. لازم تساعدنا. قلت بتسليم: أنا تحت أمرك. استدار الضابط. نفد صبره، قالوا قديمًا: إننا شعب صبور. الوصول إلى الحقيقة هو عمل الضابط، كل يوم هناك حقيقة لا بد وأن تصل إليها، عندما يتسرب الملل إلى نفسك ستستوي عندك الحقيقة والخيال.

ــ المرحوم ما قالكش حاجة في لحظة من لحظات الصفاء؟

ــ لم يحدث هذا؟ كان والدي إلهًا، جعل نفسه ملكًا بلا مملكة، لم أقل هذا؟ كانت بلدتنا مملكته. لم يحدث أن تحدثنا معًا كرجال، كان بيني وبينه ستار كثيف.

ــ لاحظ أنك الابن الوحيد للمرحوم، كان هو الاستثناء الوحيد في بلدتنا، مسألة محيرة. لم أصل لحلول لها.

ــ عمرك ما سمعت منه حاجة؟.

ــ لا.

ــ افتكر؟

ــ لم يكن هناك من يقدر أن يهدد المرحوم، ظهرت علامات اليأس على وجه الضابط.

ــ أمك ما لهاش دخل في الموضوع؟

ــ لا أعتقد.

قال: وزهران الرفاعي؟ ربما. قلتها لنفسي لكن دون صوت، القتل أحد أعماله الرسمية في بلدتنا، ولكن لحساب من؟ لسنا في موسم انتخابات حتى يجد زهران من يؤجره لقتل والدي. ثم إن والدي ليست له أطماع سياسية.

ــ زهران كان قد طلب إيد عيشة أختك.. الحياة لغز. العمر يمضي بنا في رحلة حزينة.

ــ والدك رفض، كل شيء يبدو كطلسم مجهول.

ــ زهران هدده بالقتل.

ـــ أين كانت كل هذه الأسرار؟ مهما عرفنا فهناك على الدوام شيء ينقصنا لا بد من معرفته، زهران؟ إنه أرجل الرجال في هذه الناحية.

أنا في الواقع ما أعرفش حاجة عن هذا الموضوع، وأنت يا عيشة ماذا تخفين خلف هذه الصرامة؟ صارحيني يا أختي، كان والدي هو سرك الوحيد، كان بينكما نوع من العشق كنت أحسدكما عليه. ماذا بينك وبين الأسد زهران، رفضتني فيفي، هربت إلى أعماق الذات أضاجع الغربة. أثرثر الهزيمة. أما أنت، أنا أيضًا أحبه يا عيشة. أرجل الرجال.

ـــ وحسن الأعرج.

ـــ ما دخل حسن؟ في كل لحظة يتكشف اللغز عن سر جديد.

ـــ ما هي حدود علاقة حسن بكم؟

ـــ مجرد شغال عندنا.

ـــ أقصد نسبة القرابة يا أستاذ حامد.

تساءلت بمرارة: ماذا تقصد؟

اسمه حسن منصور أبو الليل.

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أنه ابن غير شرعي للحاج منصور. قلـت عنك في بداية العمر إنك رجل عصري، حددت النسل قبـل أن تصل مشاريعه إلينا، كيف هذا؟ والله هذه الأمور هي التي توصلنا إليها. استمر الضابط في حديثه: أصبحت في عـالم آخر.

ـ مهلاً يا حضرة الضابط، ما تقوله خطير، ربمـا كنت لا تستحق هذا المأتم الذي أقامته عيشة لك في قلبها.

* * *

إذا لم أعد أقيموا لي تمثالاً في مدخل البلدة، أمام نخل العمدة، حمل معه عذاباته ومضى، كلب ككـل الكـلاب، لا تذكروني فهذا العصر من أهم سماته النسـيان، إذا أردت أن يقال عنك إنك عصري، فانس كل شيء إلا عـذاباتك فهـي دليل العصرية الوحيد.

* * *

أنت بتتهرب مني ليه يا أستاذ حامد؟ أصبحت أخاف من نظراتك، أتهرب منك، تطلبين مني أن آخذ بثأر والـدي، أن أقتل زهران أو العفريت، هل نسيت أنني لسـت سـوى

شاب طري كما تقولين، في حياتي لغزان لم أفهمهما حتى الآن، عدم زواجك مع أننا في الريف، تقدم لك ألف خاطب إن لم يكن حبًا في جمالك، فربما طمعًا في قطة الأرض التي سترثينها عن الوالد، أما اللغز الآخر فهو أن والدي ــ رحمه الله ــ لم ينجب سوانا، لا يا عيشة، كانت مشاغل، تساءلت: أية مشاغل؟ تعذبني أمور كثيرة، مقتل والدي هو آخر العذابات، لو أكملت تعليمك لوجدت عندك بعض الحلول، لعذابات خالدة خلود الأهرام، هو موت الحاج مش مشاغل؟ قالت وهي تنظر إليَّ: نبقى متفقين مع بعض، ثم مبتسمة: ما فيش خلاف، جلست. أفصحي عما تريدين، أخذت من والدي قدرته على المساومة. كان يترك الضحية تستوي على نار هادئة، أود أن أرث منه فحولته الجسدية، كل منا يطلب ما يناسبه، يا عيشة لازم نحدد موقفنا، اقتربنا من منطقة الخطر، لازم نأخذ بثأر المرحوم. لا بد وأن تذهب كل دعوات السلام هباء، ولكن أي سلام. لا شيء غير القوة. والقوة وحدها، نفسي مبطنة بالخوف، لازم نعرف مين القاتل الأول. قالت بحدة: المهم نتفق على مبدأ، عدم إكمال تعليمك جريمة في حق هذا العصر. أي مبدأ؟ إحنا لا بد وأن نأخذ بتاره. قلت

لها: والحكومة بتعمل إيه؟ انتفضت واقفة في غضب، ابتسمت لها ابتسامة المهزوم، نظرت إليَّ شامخة، من الحكومة؟ حددها؟ قلت بفرح طفولي: العمدة. وزارة الداخلية. وزارة العدل، العدل أمنية المطحونين على الأرض وهي تتساوى في استحالتها مع الحياة على سطح القمر، أو الحصول على فيفي ولو لليلة واحدة، اللي يروح للحكومة يبقى جبان حاتقيد ضد العفريت، ضد مجهول. رانت فترة صمت قالت بعدها: شوف يا حامد، قدامك حل من اثنين: يا تطلع علشان تأخذ تاره، يا إما أنا اللي حا أعمل كدا. قال لي أستاذي وهو يودعني كن على الحياد، لا تتورط في أي شيء يعوق حياتك. المستقبل أمامك فسيح، لا بد من الصدام مع العفريت. قالت عيشة: بس فيه حاجة. لازم أموتك الأول.

المرة الأولى منذ أعوام مضت أسير في هذا الطريق، أمامي الكثير حتى أبلغ مكان الساقية، لا بد من قتل العفريت، في المدرسة قالوا لنا هذه خرافات، قدم العلم حلولاً لكل شيء إلا هذه العفاريت لو لم يظهر قاتل لوالدي، لكان العفريت هو الفاعل، الصدام مع العفريت أمر يبعث على

الرعب، ماذا أفعل، قال الأستاذ، قالت عيشة، قلت أنا، قال العفريت، أمر العفريت نافذ على الجميع.

* * *

لم تأخذ الثورة منه قيراطًا واحدًا، كان رجلاً ذكيًا، وزع الأرض علينا باسمي وباسم عايشة والحاجة طمان واسمه هو توزيعًا على الورق فقط، أنا نفسي لا أعرف لأرضه حدودًا، بلدتنا ملكه، تحايل على كل الناس، كان رجلاً. ولا كل الرجال.

* * *

الطريق يئن تحت أقدام المارة عقب يوم من الكدح والعمل. سحابة بيضاء على شكل بطة سمينة تعبر السماء فوقنا في تثاقل جميل. كفاية على كدا يا حامد، أنصت بمرارة، حصلت على الإعدادية هذا العام، لم أرد. عندك كل حاجة هنا. لازمته إيه التعليم. ضحكت في نفسي من هذا المنطق. سأحصل على شهادة عليا. وبعد كدا تعمل إيه. ألا تعرف؟ أعمل، يرموك في الصعيد علشان عشرين أهيف. أنت لا تدرك أي شيء عن مجتمع الكفاية والعدل. لا قيمة للأرض ولا للمال. الخاتم الذهبي الذي في إصبعك دليل

جهلك: يا حامد أنا مستعد أديك خمسين جنيه في الشهر، العمل في حد ذاته شيء جميل. ضحك الرجل في فحولة: فكر في مشروع. الفلوس موجودة من جنيه لألف. ضحك مني. قالوا لنا في اتحاد الطلاب: العمل شرف، العمل حق، العمل حياة أنت تدوس هذه الأحلام بكل ضراوة، أنت تحطمني يا والدي. الوظيفة للي مش لاقي يأكل. التعليم شيء جميل يا أبي. لا تعرف قيمة العلم. لازمته إيه وجع الدماغ هو بوظها غير المتعلمين، سنقيم الدولة العصرية بأحدث منجزات العلم والتكنولوجيا، قالها بفخر، انطلقت الأكف تصفق، الحناجر تهتف. دارت بي الأرض. انقطعت أحبالي الصوتية من كثرة الهتاف، قال: علم. قال آخر: هو بوظها غير العلم. رد مرمطون الجلسة: علم هذا عند ربي. تمايلت الرؤوس من شدة الضحك، أمعنوا في الصياح، لو قلتلهم عن أحلام المستقبل لضحكوا مني حتى قيام الساعة. ربما كان عندهم سر الكون. حامد. من بكرة أنت من الأعيان. أنهي الموقف بهذا الحسم. يكتب تحت اسمك عادة رأسمالية وطنية. أية سخرية تلك. أعضاء الاتحاد الاشتراكي يعملون لك ألف حساب، العمدة أنت الذي وليته، شيخ الغفر يدعو لك أو عليك

ليل نهار، تلك هي مملكتك يا أبي. لا بد وأن أكمل تعليمـــي. أره الزواج وإن كنت أحن إليه منذ الطفولة التعسة. كرهــت أعواد الذرة العالية وما يحدث تحت ستارها، كرهت الحيـــاة، المهم أن أكمل تعليمي، أن أذهب إلى دمنهور.

* * *

والحياة هي تجربة كل منا مـــع الفشـــل والإحبـــاط، عندما دفنوا والدي أدركت أنه لا شيء له قيمة، بمجـــرد أن ودعت القبر عرفت أن الحياة أكذوبـــة كبـــرى. عارضـــت عيشة، دفنوه غصب عنها، حملوها بعيدًا. عندما أقبل الطبيب الشرعي كادت أن تمزق وجهه بأظافرها. مانعت الجفن، بعد الدفن قررت ألا تقام ليلة المأتم لن تتلقى العزاء إلا بعـــد أن يقتل القاتل، في كل صباح جديد يستحق الإنســـان أن يتلقـــى العزاء قبل أن يبدأ يومه، الحياة تتسرب منا دون أن نـــدري. ليس الموت هو المأساة الوحيدة في حياتنا يـــا عيشـــة، قتـــل القاتل هو المبرر الوحيد في نظر عيشة كي تستطيع مواصلة الحياة بعد ذلك. حقيقة لم أكن أدرك كل هذه الأمور من قبل.

* * *

أمتى الزمان يسمح يا جميل؟.. صوت سكينة: كنت عائدًا إلى المنزل بعد منتصف الليل، كانت جالسة أمام منزلها تدخن سيجارة غليظة، أين يكون القمر قبل شروقه؟ قالت بصوت متقطع: بيكون راكب على الشمس. ضحكنا معًا ضحكة مبتورة صفراء، صمتنا معًا، كبرت، لماذا يكبر الناس ويتقدم بهم العمر؟ ترى كيف كان جمالك وأنت في العشرين؟ من هو أول رجل قدر له مضاجعتك؟ أنه أكثر خلودًا من كولومبس، طيب وفي الليالي اللي ما بيطلعش فيها خالص، ضحكت قبل أن أجيب: بيكونوا في حالة انسجام، وصال، تنهدت، جلست إلى جارها، تعطيني الأمان لمدة قصيرة. الحيرة تقذف بي بعد ذلك إلى بحار ليس لها شاطئ آخر، هزمت في معركة ضارية، قالت: اللا ليه يا حامد؟ أنصت إليها. أكثر التجارب عمقًا هي تجارب البغي والمجرم والمجنون وربما تاجر المخدرات، الليل بيجي بعد النهار؟ قلت في نفسي، الليل يأتي الأول دائمًا. يسقط ظلامه، يلف صمته كل شيء، قالت وكأنها في عالم آخر طيب ليه الليل بيجي الأول؟! احترت، كفاني حيرة يا سكينة، لم أحضر إليك كي تقذفي بي إلى حيرة جديدة. هيا إلى الداخل، نرتشف معًا

من عرق جسدينا، عرق لزج له رائحة قذرة. هيا كي تحتك منا الأجساد ونحن في غيبوبة أود أن تدوم إلى الأبد. حامد، لم أرد عليها، كنت ألهث، ليه ما اتجوزتش، واصلت الصمت، الصمت قوقعة تحمي الضائعين أمثالي، أمثالي أنجبوا أولادًا. لو شك أهل البلدة في قدرتي الجنسية لأعلنت علاقتي بك على رؤوس الأشهاد. إن كذبت، لن تقول حبات العرق إلا الصدق. لسه بدري، أنا ما زلت صغيرًا، قالت في ألم، هو الموت له صغير وللا كبير، أصبحت أخافك في الأيام الأخيرة. التصقت بها. لا أمان عندك بعد اليوم. لو حضرت معي إلى دمنهور لكسبت أكثر مما تصورين، من يدري قد يعقدون لك الزعامة هناك، أنا عجبتك الليلة. ضحكت. ضحكنا معًا، استلقت على ظهرها وهي تضحك. قال أحدهم نحن نضحك لكي لا نبكي. أشعلت سيجارة وهي تضحك تركتها، كانت عارية، وهي غارقة في بحر من الدموع والضحكات. خرجت.

* * *

قبضوا على حسن الأعرج وزهران، ذهبوا بهما إلى السجن كان من الواجب أن أزور حسن الأعرج هناك، عنده

السر، كرهته بمجرد أن عرفت أنه أخ غير شـــرعي لـــي. حبيبتي فيفي. رجوت الضابط أن يظل هذا الموضوع ســـرًا، بعد التحية. ما دمت منا يا حسن لم تخفي السر علينا؟ عندما ستعود سأطلب منك بحكم الإخوة أن تعاونني في أخذ الثـــأر لوالدي، أقصد والدنا المقتول، ألقيت له بعض النقود، عدت، أحبك يا فيفي، أخافك يا عيشة، حسن صامت كأبي الهـــول، الصمت لا يمكن أن يكون من ذهب. تلك أكذوبة تضاف إلى رصيد الأكاذيب، حتى أنت يا حسن بـــدأت تظهـــر عليـــك علامات الفكر، مرحى يا أخي. كان من المفروض أن تذهب إلى المدرسة، ألم تعلمي يا فيفي. أحبك.

* * *

ـــ فيفي.

ـــ.......

ـــ أنا بحبك.

ـــ...

ـــ أهو الدلال دا.. دليل اهتمام.

استدارت إليَّ. كم هي جميلة، تحمليني يا فيفي. فلاح نازح من أعماق الريف. حاول أن يتظرف، عايز إيه؟ كـــان

الجو جميلاً. بدت لي الحياة محتملة إلى أقصى حد، ردت عليَّ أخيرًا، وضعت قدمي على أول الطريق. بين أعواد الذرة في بلدتنا حصلت على الكثيرات، كن يدرن الوجوه إلى الناحية الأخرى من فرط الخجل. عايزك؟ بدت لي الحياة كأغنية جميلة والشارع كطريق سهل بلا تعاريج أو مطبات. يا سلام، كدا على طول؟ سأكمل حديثي.. مأساتي يا فيفي. ويجب أن نتصارح منذ البداية أنني أحلم أكثر مما أعيش. معذرة ربما بدوت غير مفهوم لكن أشرف الأمور أن نقوم معًا برحلة مزدوجة إلى أعماق الذات. أشوفك فين؟ قالت وهي تداري ابتسامتها: أتفضل في البيت. ظهرت على وجهي علامات الانكسار، لازم يكون والدك معاك، والدي لن يزوجني إلا إذا كان الزواج نقلة إلى الأمام، قبل بحثه عن فتاة تناسبه لا بد وأن تكون قطعة الأرض وكمية المال أكثر مناسبة لظروفه، ثم أنني لا أطلب الزواج يا فيفي. أحبك يا فيفي. صدقيني حبنا الأول يكون أصدق حب، الزواج رباط رهيب أخافه. لم أكمل تعليمي بعد. عرض والدي الزواج عليَّ في العام الماضي، رفضت، لو قلت له أني أحب فتاة من البندر لنفاني من الضهرية إلى الأبد، كما تفعل الحكومات

المحافظة مع الخارجين على القانون. بونيسوار، قلت في نفسي وأنا أمتمثل كميات العجز والحزن التي تفصل بيني وبينها: أسعد الله مساءك.

* * *

أوعى يا حامد تسمع كلام البنت العبيطة دي. كانت أمي. كبرت في الأيام الأخيرة سنوات من العمر، ماذا تقصدين؟ حكاية التار دي. قلت بعناد من يعلم كل شيء يحاول أن يتغابى: رأيك إيه يا أمي؟ لا أحد له رأي حتى سيدي الشيخ مسعود نفسه، رأيي أن فيه حكومة، وعيشة مصممة على الأخذ بالتار، أنا ما ليش دخل بالبنت دي. قالت لي بعد فترة صمت: حامد، أنت راجل البيت الكلمة كلمتك، ماذا سيقول الناس عنا؟ بلا ناس بلا غيره، الصمت الثقيل الصمت المشحون، يا حامد أنت اللي فاضل لنا تسيب المدرسة وتيجي هنا، الله يرحم أبوك بقى، يبدو أن العذاب أبدي كالموت، والتار؟ أتت الكلمات مشروخة ملتاعة، إذا كان لا بد يبقى زهران، عار علينا أن يحدث هذا، دعيني أخرج، ربما وجدت هناك وفوق دوار الساقية مخرجًا من كل شيء، لا خبرة لي بمثل هذه الأمور ولكني ذاهب.

* * *

تزوجت فيفي فمرحى يا ليالي الشقاء.

السرير، الشقة الخالية، مبلغ كبير من المال، مؤخر صداق وقدره، أكثر بقاءً وخلودًا من عواطف البشر، لم أرها منذ عقد قرانها، رنين النقود أكثر تأثيرًا في النفوس من خفقات قلوبنا البكر، دعوا القمر وشأنه، حلوا لي هذه العذابات الصغيرة يا من جعلتم من التهريج علمًا له أصوله وقواعده وأبطاله على مر التاريخ، تركت في نفسي جرحًا لن يندمل، يهون كل شيء بعدك يا فيفي، أنا السبب في كل هذا، لم تكن عندي القدرة على اتخاذ قرار ما، سأقضي بقية سنين العمر القادمة أضاجع حزني من بعدك. مستعد أن أتنازل عن كل ما حصلت عليه في الحياة ــ وهو قليل ــ لقاء أن يعود قلبي بكرًا مرة أخرى، لن يندمل الجرح، ليلة عرسها، المدينة تستسلم لليل طويل مقبل، البيوت تقف حدادًا على شيء فقد، في اللحظة التي كانت تستسلم فيها للرجل الآخر، اشهدوا يا أهل دمنهور، يا سكان شارع زويل، فيفي في أحضان رجل آخر، هنا إنسان يلعق جراحه بمفرده، فيفي تبيعه الحب وتسوي معه الغرام على نار هادئة. إنسان يعايش أحزانه

بمفرده، فقدت بكارتها، البيوت في حداد دائم، الرياح تعوي، ثرثرة المارة تأتي إليَّ كأنها مرثية حزن في مأتم قد يطــول إلى الأبد، تصبحون على خير، فيفي راضية بكل ما حــدث، وأنت من أهل الخير، ربما لم تكن تحبني، أسعد الله مساءكم، كل شيء مزيف، حديث النفس لا يــورث ســوى الجنــون، الحزن قضى على كل شيء، فيفي تهمس له، أحبك، يقــول لها، هذه ليلة مجاملات بالطبع، على خير تصبحون.

* * *

أفرجوا عن حسن الأعرج وزهران. دخــل حســن حجرته المظلمة، قالت لي سكينة إنه طلبها علــى ســنة الله ورسوله ولكنها رفضت، حسن صامت، يأكل عيشة بنظراته، ينظر إليَّ على أنني حققت كل ما أطلب، بعــد أن تزوجــت فيفي لن يكون للسعادة طعم ما. حاولت أن أكلم حسن، أشاح بوجهه، لو كان هناك سر ما لن يقوله إلا لعيشة. إيــاك يــا حسن من هذه التطلعات الطبقية. أنت شقيق عيشة، لم تحمل السر بمفردك؟ أنت لم تخلق لمثل هذه الهموم، ضاعت البسمة والبهجة من حياتك. بل من حياة بلدتنا كلها، حتــى زهــران حضر إلى منزلنا وأنا غير موجود. عيشــة غاضــبة. إنهــا

تطلب مني أن أتخذ موقفًا من هذا المجرم القذر، هكذا وصفته، لا بد وأن بينكما سرًا ما، فجعت في فتحي. فجعت أنا في فيفي، آه لو تدرين كيف فجع هو، الفجيعة هي التي تعطي الحياة طعمها الخاص، كنت أنت يا عيشة الأمل الوحيد لفتحي، بدمنهور حولته إلى شخص آخر، سأؤدب زهران وفتحي وكل أهالي الضهرية أمهليني. اقترب الآن من الساقية، الغفير محمود مصطفى البرادعي ذهب إلى ضابط النقطة، قال، إن عنده أقوالاً مهمة في التحقيق. قد تكون الطريق إلى معرفة الفاعل، قالوا: إن زهران قد ذهب إلى الساقية، قال بعضهم: إنه ذهب إلى هناك بناء على اتفاق مع عيشة، قالت سكينة: إن رأس العفريت هي مهر عيشة، جزاك الله كل خير يا محمود، كنت معي، لم تقل لي أي شيء، أتوقف، لي في هذا المكان أجمل الذكريات، ليل الريف له طعم خاص، ظلمته لها لون معين، صمت أقرب إلى السكون الأبدي الذي لا حياة بعده، أصوات الضفادع، نباح كلب، صوت ساقية تدور، السعال المشروخ، عواء ذئب، طلقة نارية، أصوات تؤنس وحشة السائرين وحدهم في جوف الليل، عما قريب ستلد فيفي، على هذه الساقية، قيدت

وفاته ضد مجهول، يقولون أن والدي هو القاتل، أقصد هو الذي تسبب في قتله، من أعماق الحق تشممت رائحة الماضي بكل أحزانه، تساءلت في ضيق وخوف، لم يتقدم بنا العمر، الليل خيمة من العتمة، زهران عند الساقية، الليل رداء سميك لونه أسود، لا بد وأن في حياة زهران أكثر من فيفي، الليل كتل من الصمت، سأضع حزني على حزنك يا زهران ونقيم عند الساقية تلاً من الأحزان، فيفي حامل، نخلتنا أصبحت عاقرًا، العقم، زهران عند الساقية، العتمة، الصمت، الليل، فيفي، أسير نحو الساقية، قد ازدهر الخوف بداخلي، لولا إلحاح عيشة لما قدمت إلى هنا، لا حيلة لي في ذلك، لا أعرف كيف سألتقي بالعفريت، لم أكن أؤمن بمثل هذه الأمور هذا لا يمنع وجودها، لا بد وأن نؤمن بوجودها قدر إيماننا بالحياة نفسها، ما تطلبه عيشة مستحيل، هي صعبة المراس، الجريمة الوحيدة التي اقترفها والدي ــ يرحمه الله ــ أنه منعها من إكمال تعليمها، أنا شخصيًا أهابها، أمي تتحاشاها منذ أن قتل والدي. بكت أمي، منعتها حتى من البكاء، قالت إن الحداد والأحزان يبدآن عقب أن نأخذ بالثأر، لم أكن أقصد هذا يا فيفي صدقيني، سنقيم له مأتمًا كبيرًا، ثلاث ليال كاملة،

لن أصدق أحدًا بعد ذلك، ولم يا فيفي، سنتقبل العزاء من كل الناس، شكر الله سعيكم جميعًا، العزاء مقتصر على تشييع الجنازة، كان هذا بقرار منها، احترت في أمرك يا عيشة.

* * *

قتل حسن الأعرج، مضى وهو يعرف السر، من قبله قتل والدي وهو وحده الذي يعرف سر حسن منصور أبو الليل، أحضروه إلى منزلنا ذات صباح حزين، بكت شمسه دمًا أحمر، قرر أن يبقيه في منزلنا، لم يجرؤ أحد على سؤاله، وإن كانت التساؤلات المرة قد انتشرت في كل بيت، أمران مقدسان هنا في بلدتنا مواعيد الصلاة وهي عمل نقوم به بحكم العادة، والشائعات وهي نوع من التمرد غير المقصود، أو محاولة للخروج على المألوف من أمور الحياة، قيل عن حسن الكثير، وجود والدي كان صمام أمان بالنسبة لحسن، عليَّ أن أحميك من الآن، مات المرحوم وهو يحمل سرك، لم يقل سرك، لم يقل لي أي شيء. غداة أن خرج حسن من السجن قرر أن يبقى نهائيًا في الحجرة المظلمة، لم أحاول الذهاب إليه، فسرت التحول الذي أصابه على أنه حزن على المرحوم، أنت وفي يا حسن. الذين سيوزعون

التركة علينا عما قريب سيجعلون لك نصيبًا فـــي الميــراث، ولهذا الوفاء نصيب آخر، الحاج منصور أبو الليل والـــدك، أنت نزوة ليلة سوداء، هل قام الحاج منصور بكل شـــيء؟ أم أنها كانت جريئة؟ لست أدري. حلت لي المدينة هذه المشكلة، ابتداء من الجنيه فصاعدًا يمكن للإنسان أن يجد حلولاً لتلـــك الرغبة الملحة، بل هناك ما يهبط حتى الحتة بعشـــرة، فـــي النصف الأخير من الليل تحدث الأعاجيب، كان حزن عيشة على حسن الأعرج أكثر من حزنها علـــى والـــدها، عيشـــة صامتة، من المستحيل أن تفضي لي بما عندها، وجدوه على دوار الساقية لسانه مدلى من فمه، عيناه جاحظتـــان، متـــى خرج؟ قالت لي أمي أنها شاهدته بنفسها في حجرة عيشـــة، كان جالسًا بجوارها في خوف، كانا يتحدثان معًـــا بصـــوت منخفض، بعدها خرج، ولم يعد، يحرمك الله يا حسن.

* * *

فيه في الأمر سر. قالها أحدهم وهو يعطي الجـــوزة للجالس إلى جواره. قريتنا أماتها الرعب، قتلها الخوف، هناك خطر يهدد كل فرد منا. تساءل الكل في حيرة ترى على من الدور؟ ولا سر ولا غيره، هوه عفريت الواد عبـــده، لمـــاذا

يموت الناس بهذه الصورة وفي العراء بذلك الشكل؟ رد عليه آخر، يمكن الواد زهران، مين يعرف، نحن نتمسك بالحياة حتى عندما ندنو من الموت، نطل عليه من بعيد. نزداد تمسكًا بالحياة إلى درجة الجنون، كانت الخطيئة الأولى بسبب امرأة، تساءل أحدهم: يا ترى الدور على مين؟ رد عليه آخر بين اليقظة والنوم: الغفير محمود، تعالت ضحكاتهم. استراحت الجوزة التي داخت من كثرة اللف وسطهم والعمدة فين؟ رد أحدهم ضاحكًا: منتظر دوره، تعالت الضحكات مرة أخرى، صمتوا فجأة، قال أحدهم في استظراف، المهم أن الكل يخلص، عايز أفضل أنا والجوزة بحريتنا، قريتنا تلهث من فرط الرعب، أمال الضابط فين؟ سافر مصر، يعمل إيه؟ رد فتحي في ضجر، يستصدر أمرًا بالقبض على العفريت، مرة أخرى تتعالى الضحكات، فرقع بعضهم بأصابعه في الهواء تعبيرًا عن السرور، رمى البعض نفسه على الأرض،صمتوا، مالكم صمتم، أكملوا القصة، ذهب الضابط إلى مصر يستصدر أمرًا بالقبض على العفريت، أحالوا أمره إلى دار الإفتاء لتفيد إن كان هذا صحيحًا من الناحية القانونية، أفادت دار الإفتاء أن القانون المدني لا ينص على

ذلك. لا بد من تعديل. لا يصلح التعـديل إلا عـن طريـق السلطة التي وضعت نفس القانون العفريت من مملكة أخرى، لا بد من احترام العهود والمواثيق، نحن في القرن العشرين، معذرة. حكايتنا حزينة الختام، ذهب الضابط، عاد الضابط، لا جديد في الأمر، بدت الحياة مرهقة متعبة، تسير ببطء يبعث على الملل، قريتنا تنزف أعز ما تملك في يأس، العفريت، قد استولى على أرضنا على الساقية. من سيحاول أن يذهب إلى هناك سيكون نصيبه القتل، نضبت مـوارد الحيـاة، أمـلاك والدي لا تحد، ماذا تظن نفسك يا حضرة العفريت لن أنذرك كما يفعل المتحضرون سأدخل معك، فيما أظن في صراع قد يطول.

* * *

الضحية الثالثة، آخر شخص كان يعرف السر، لم أنجح في الحصول منه على أي شيء، قال لي إنه قال كل شيء لحضرة الضابط، أنت أيضًا عصري يا محمود، تدرك معنى التخصص وقيمته، أنا ابن القتيل الأول، من حقي أن أعرف منك كل شيء، كل ما قلته لحضرة الضابط لم يزده إلا حيرة، حيرة أعمق من بحر الإسكندرية الذي لا يوجد له شاطئ آخر كما يقولون في بلدتنا، كان أملي أن أعرف منه السر، مات في اليوم التالي، مات بنفس الطريقة على دوار الساقية، لا بد وأن الدموع قد نفذت منك يا شجرة الدموع، تحقيق جديد، متاعب جديدة، كل شخص في بلدتنا يعتقد أن الدور عليه، حمل الضابط أوراقه وعذاباته وحيرته وفشله ومضى، الطريق صعب، بدأت أشك في حكاية العفريت، نحن لا ندرك قيمة الحياة إلا عندما نصطدم بالموت، عينان جاحظتان، لسان مدلى، بطن منتفخ، جسد متصلب، رائحة عفنة تهب مع الرياح، عندئذ نرتد إلى الحياة، ندرك قيمتها، مع أننا واهمون في كل ذلك، لو شاهدتم تلك الحفرة المظلمة، القذرة، والتي تمتلئ بالمياه أيام الفيضان عن طريق النشع لبصقتم على الحياة، فالشيء المؤكد أنها لا تستحق كل هذا،

التقيت بحضرة الضابط، لا بد وأنه مر عليه عام كامل لم ينم فيه، قلت له: إلا إيه السر؟ شيء محير. الحيـرة تعنـي أن يدور الإنسان في حلقة مفرغة، هل تصدق حكاية العفريـت هذه؟ قال بدهشة: الغريب أن حسن ــ يرحمـه الله ــ وهـو الشاهد الوحيد أقسم على حكاية العفريت، في لحظة واحـدة، يموت الإنسان، يغمض عينيه، لا يفتحهما بعد ذلك أبدًا، يقال عنه المرحوم، ما قيمة كل شيء؟ لا بـد وأن فـي حكايـة العفريت شيئًا من الصدق، لا، لا يوجد شيء اسمه العفريت، العفريت وهم نقوم بعمله بأنفسنا، وبعد هذا نخاف منه، سكت في حيرة، ما هو تفسيرك للموضوع؟ أن الذي قتـل حسـن الأعرج ومحمود البرادعي هو خوفهم الداخلي، الوهم الكبير، والحاج منصور، من الذي قتله؟ هيه، صمت،لم يرد، هنيئًـا لك أيها العفريت، أصبحت كل شيء في بلـدتنا الصـغيرة، الأمهات تخيف الصغار بك، الضـعاف يهـددون الأقويـاء بوجودك على بعد أمتار من القرية، الذين بهم شـماتة مـن بعضهم البعض يعايرون أنفسهم بوجودك، قاطعته، ما كانش بيخاف من أي حد، قال في حسرة: مات حسن وهو الوحيـد اللي كان يعرف، حاولت معاه المستحيل، حتى سكينة، حتـى

الذين رشحوا أنفسهم في الانتخابات أجمعوا جميعًا رغم كل خلافاتهم على أن القضاء النهائي عليك هو أهم شيء مقدس، شيء محير يا أفندم، لا تضحك يا عفريت، الذين افتتحوا النادي الصيفي في بلدتنا الصغيرة، أقسموا أنهم يمارسون الرياضة لأن العقل السليم في الجسم السليم، عليك أن تفهم الباقي. ألم أقل لك؟ صرت كل شيء عندنا، صمت الضباط، تركته دون كلمة وداع، لو لم العفريت، فمن يكون سواه؟ ليلة مقمرة، وإن كان الشتاء لا أمان له. أنا في الطريق إلى الساقية، سأحاول أن أقتل خوفي. زهران سبقني إلى الساقية، لن أعود إلا بالأمان لبلدتي، لن أستعين بالله على العفريت، سأستعين بالله على خوفي، هذا هو الأهم أما الباقي فأمره بسيط.

* * *

الدنيا ليل، الليل يبكي سوادًا كثيفًا في حزن صامت، بدا منزلنا مرهقًا ضائعًا وسط العتمة، خيل إليَّ أن جدران منزلنا قد انشرخت، فحزنت، حملوا جثته وساروا في جوف الظلام، مسكين يا والدي، الضوء المنبعث من الكلوبات اختلط بضوء القمر الشاحب ليؤلفا معًا شيئًا حزينًا، لا حول

ولا قوة إلا بالله، الكل في حالة ذهول، قتل الحاج منصور أبو الليل، إنا لله وإنا إليه راجعون، ما زلت أذكر قسمات وجهه، رغم أنني كنت بعيدًا عنه، غربة قاسية على النفس، الغربة تعني أن يعيش الإنسان في قوقعة ذاته، رحمة الله عليك يا والدي، قال لي: أنت فاكر نفسك خلاص بقيت راجل، قلت في خوف: حصل إيه؟ قدمت في المدرسة، لم يكن هناك اتفاق على أن أكمل تعليمي، ولكني فعلتها، سادت لحظة صمت، راح يتفرس في وجهي، قليلاً ما نتحدث معًا، نحن نعيش كالغرباء، ترتفع إلى مستوى الصداقة والإخوة، اسمع، انتبهت إليه، سيلقي بمزيد من التعليمات، ما فيش تعليم، ما فيش دمنهور، هو قادر على تنفيذ هذا القرار، دا حق من حقوقي، تعالت ضحكاته، ندماء جلسته يضحكون، ضحك بحكم العادة، حق إيه؟ تعالت الضحكات مرة أخرى. اسمع يا أستاذ حامد. توقفت الضحكات. ماذا تفعل بكل هؤلاء يا أبي؟ هل سيكون لي في يوم من الأيام مثل هذه البطانة المخلصة؟ لا أعتقد في الإخلاص. القلوب علمها عند ربي. حق من حقوقك؟ أنا كان نفسي أشوف دا منك من زمان. لحظة صمت، مصمصة شفاه. النار لا تخلف بعدها إلا الرماد.

حكمته، أحوال الدنيا لا تبعث إلا على البكاء، أتــت كلمتــه لتوقف كلا عند حده ما فيكش خشونة الرجال يا حامد، قــال أحدهم: هوه عاد في الزمان ده رجالة. زمــن لا ينجــب إلا العقم، زمنكم أكثر عقمًا. لم تتركوا لنــا ســوى الــذكريات الخاوية. قالتها لي قوادة من أبي الريش عندما سمعت صراخ فتاة بكر، حتى الآن لا أدري لم قالت ذلك. هل تقصــد أنــي لست رجلاً يا أبي؟ قال والدي بحزن: مش عارف يا حامــد. قال أحد المنافقين، الحاج منصور. بيظهر، كان والدي ساهمًا كأنه يبحث عن شيء مستحيل. باين عليك متربي يا حامــد. العلم ما لوش قيمة هنا يا حامد. الصفات الكويسة اللي فيك ما عادتش تنفع اليومين دول، كل ما فعلته مع الفتاة كان بحثًــا عن هذه القضية، كنت أحاول أن أثبت لنفسي قبلها أنني رجل حقيقي. عندما سمعت هذه الكلمة من القوادة اعتقدت أن رنين النقود أصدق وأحلى الأمور في هذا العصر. ألا كمل والدي حديثه بعد لحظة، الحياة صعبة قوي يا حامد، أحببته وكرهته في لحظة واحدة، لست أدري لم! هذا ما حدث، أحسست أنني أحبه لدرجة العبادة، وأكرهه في نفس الوقت لدرجة الرغبــة في القضاء عليه، كانت كلماته قاسية، حطمت نفسي، لا بــد

وأن أجرب سكينة بمجرد عودتي إلى الضهرية، ربما وجدت عندها حلاً ما..

* * *

ـ مساء الخير يا فيفي.

لم ترد عليَّ، تنهدت، مسحتني بنظرة احتقار، بالطول والعرض، حتى أن يا فيفي أخاف نظراتك، أنا السبب فيما حدث يا فيفي ما حدث قد حدث، لا بد من تسوية الأمور، قالت بكلمات باكية: تحت أمرك أمور إيه، قلت إيه، قلت وأنا أتصنع الابتسام في حزن: فيه طبعًا أمور، قاطعتني: حدد كلامك يا أستاذ حامد، قلت كمن يقوم بآخر المحاولات: حبنا يا فيفي مهما كانت النتيجة، حاولت أن تقاطعني: صحت: أنت الحب الأول والأخير، هدأت ثورتها. استراحت نفسي، لماذا كان الحب ما دام هناك العجز والحرمان؟ أكمل، ابتلعت ريقي: أصل أنا. قالت بنفس الصرامة: ممكن أتكلم أنا، بحثت فيها عن لحظة عطف واحدة، عن نظرة حب، بحثت عن الشوق القديم، مات قبل أن يولد، أنصت إليها: إيه العمل اللي قمت بيه علشان الحب الأول والأخير، لم أرد، عادت نظرات الاحتقار، هربت، هربت مني، تخليت عني، صدمتني في

أعز حاجة عرفتها يا حامد، خليتني كفرت حتى بالوجود، استدارت، ابتعدت، حضرت لي ذات مساء، قالت:إن هناك من تقدم لها، لم أزل طالبًا، قالت: إن مجرد ظهوري في الجو يعطيها القدرة على اتخاذ موقف من أهلها. ظروفي غير مناسبة يا فيفي، حتى أنت، هناك مشاكل لا بد من حلها، هرولت، تركتني، ظلمتني، الظلم مليارات مكعبة تملأ هذا العالم. لم تدركي يا فيفي أن هناك تلاً من التقاليد تحول دون سعادة الإنسان في بلدتنا، لو أردت الزواج منك لبدأت الحرب منذ أعوام مضت، الحاج منصور أبو الليل، رجل رهيب، أنا أخافه. على فكرة بلدتنا كلها لا توجد فيها واحدة تحمل اسمك، يترجمون اسمك عندنا بفوقية. لا يطلق إلا على أولاد الذوات، أكره الزواج، الزواج قيد، ولكني مستعد للارتباط بك، ساكت ليه؟ فشلت في كل شيء، اتكلم يا حامد. ماذا سأقول لك يا فيفي؟ كان ليا فيك أمل، في العالم كميات من العجز والعذاب قدر لي أن أغوص فيها بمفردي إلى الأبد، بذمتك أنت بتحترم نفسك، شعرت أني أغوص إلى الأعماق، أتهاوى. لا أشعر بهذا الاحترام الذي تتحدثين عنه، رحماك بي، ضاعت فيفي إلى الأبد. تزوجت رجلاً قالت عنه إنه

رجل حقيقي، والحب يا فيفي، قصتنا الخالدة، أنت أيضًا ــ يا أعز من عرفت ــ وجهت إلى رجولتي طعنة حادة.

* * *

لا بد أن أواجهك يا عيشة، قررت إيـه يـا حامـد، نظرت إليها: أنت أيضًا تشكين في. فزعت عنـدما أدركـت مأساة محمود وأولاده، لم يترك لهم شيئًا. أمام زوجته طريق مظلم، قد تقودها سكينة إلى بر الأمان. قد تضن عليها بهـذه الخدمة فهي تبدو أكثر جمالاً وأنضر شبابًا منها، موضـوع المرحوم، عندما قتل محمود البرادعي، ذرفت أحزانها قبـل الدموع، كوم اللحم الذي تركه لها، القاتل لا يقيم وزنًا لمثـل هذه الأمور، أمنيتي أن تدمع عيناك مرة واحـدة، لـم تجـد الدموع طريقها إليك إلا ليلة أن قتل حسن الأعـرج، كانـت الرغبة في الانتقام أهم لديك من أي شيء آخر، يـا عيشـة عايزين نعرف مين القاتل الأول، ابتسمت نصف ابتسـامة، فعلاً لازم نعرف، قلت: البوليس بيحقق، بمجرد ما نعـرف القاتل، قالت: إحنا اللي ها نعرف. كيف؟ حـا نـروح عنـد الساقية، هناك لا بد حا نعرف السر، بعد كدا ننتقم للمرحوم، أمنيتي أن أفعل هذا ولكن، تعرف يا حامد، أنصت إليها، لـو

الأمور تقف عن الأرض والساقية يبقى كويس، تتحدث بكل بساطة، نحن لا نعرف حدود أرضنا، أعمال والدي التجارية تركت دون حساب واضح، لم أصل إلى شيء في تعليمي، بعد كدا التهديد حا يوصل لغاية هنا، ليا أنا وأمي، لازم نقف في وشه وهوه لسه هناك، لا بد من عمل شيء ما، قلت هذا وأنا خائف، بدا لي حديث عيشة معقولاً، خلاص يا عيشة، قالت بفرح بدا غريبًا وسط هالات السواد والحزن: كنت الأمل دلوقت يبقى الحاج منصور ما متش، لسه عايش فيك يا حامد.

* * *

أخذت منها البندقية، نادت عليَّ أمي عندما تحركت، خبطت صدرها، صاحت، يا ولدي، اندفعت نحوي، كي تمنعني من الذهاب، كبدي، كانت عيشة سعيدة، أخذت منها البندقية وأنا أشفق على نفسي من التجربة. لا مفر من ذلك، تمنيت أن تصل أمي إليَّ، حتى أعود معها وأستريح من هذا العذاب، عيشة كانت لنا بالمرصاد، أغلقت الباب عليها، كادت أمي أن تحطم الباب، لم يعد أمامي إلا أن أكمل السير، حملت بندقيتي، وذخيرتي، وخوفي، سرت في الطريق إلى

الساقية، أماتني الخوف، تنفست الحزن، الليل الرمادي كرداء سميك، الضهرية وقد لفها أسى حزين، قتل الحاج منصــور أبو الليل، تزوجت فيفي، عيشة مصرة على الأخــذ بالثــأر، تركتني أمي أحضر إلى الساقية، أزهــر الخــوف بــداخلي، الذخيرة عاقر، لن تفعل شيئًا لن ينطلق من ماسورة البندقيــة سوى الأوهام، الوهم هنا كثير، كثير، نقيق الضفادع، الظلام اللزج، صوت الصراصير، عواد ذئب، صوت يقــول آه يــا ليل، أنين ساقية تدور، ظلال البيوت في الليل كشواهد القبور الأحلام التي وئدت، سكينة، الليل والنهــار. عشــق القمــر للشمس، أحزان ست الدار، مسكينة، كلنا مساكين ذكرى أبو الليل، قال لي أستاذي، قالت فيفي، سقطت الكلمــات كجثــث الموتى، العفريت يهدد كل شيء، عجزت الكلمات، الرعــب في الضهرية كالمصيبة، مصيبة بلدتنا كبيرة، الموت موجود في كل مكان، البقية في حياتك، أنت رجلنا من بعده، إلا ليــه يا سي حامد، الليل بيجي الأول. قريتنا اســمها الضــهرية، شبراخيت على بعد ١٢ كيلو مترًا، تبعد عن التوفيقية بخمسة كيلو مترات، فوق قريتنا سماء، الساقية ما زالت بعيدة، فــي السماء رب العباد، عند الساقية خلاصي، قريتنا تنام قبــل أن

يحل الظلام، الظلام في قريتنا أبدي، لزج، له طعم ورائحة، الحزن يمشي على قدميه في دروب قريتنا، ضاجع نساءها، عاقر شيوخها، داعب أطفالها، نادم شبابها، أنادم نفسي، أحدق في الفراغ، أنا حامد أبو الليل منكفئ على طريق لن يوصل لشيء ما، صافحت الحزن، ودعني، الساقية تقترب، كل شيء ثقيل، حتى ظلام الليل، سأنتظر العفريت، أقتله، لو غاب سأنتظره، التحف العرى، أكل الجوع، أشرب الظمأ، أعاقر القلق، وأنادم الجنون، ليلتي مثقلة بالأحزان الرمادية، حبلى بالبرد والرطوبة والأوهام الزرقاء.

* * *

الفارس المرسوم على منزل سكينة يغازل عيشة، تضرج وجهها خجلاً، قلت وأنا أتمثل كميات العجز والحزن بيني وبينها: أسعد الله مساءك. أنا قتلك يا عفريت بلدنا، رعبي منك قضى على حياتي، الساقية تمد أرضنا بالضباب والأوهام، شجرة الصفصاف ما زالت تبكي، على جدار جامع سيدي تاج الدين، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، على ميضته الداخلية، وإن سألك عبادي عني فإني قريب، سكينة، الإيمان أبعد من بلاد واق الواق، الموت في قريتنا كالوباء،

العفريت موجود في كل مكان، ستلد فيفي، ضاجعها زوجهـا ألف مرة ومرة، شاخت سكينة، شاخ كل شيء، حتى الحيـاة نفسها، كل شيء مهدد بالموت حتى حياتي، مواصلة التعلـيم أمل لا أجرؤ على أن أحلم به، عند الساقية يبدأ كل شـيء، دورة جديدة، ويحكى أن، ويقال أن العفريت قادر على كـل شيء، وأنه عفريت عبده، رفضتني ست الدار، يا ندامتي يـا سي حامد، دا عيب، ويلتي، الفارس المرسوم علـى منـزل سكينة يتهددني، حارتنا أضحت مشاعًا لكل الناس، جلسـات المصطبة في أول الليل تبدوا كذكرى أيام ولت ولن تعـود لا شيء خالد إلا الموت، أنا حامد، حامد منصور أبو الليل.

* * *

اتخذ العمدة وشيخ الخفر قرارات خطيرة، لا بد وأن تكون الحراسة مشددة حتى نحمي قريتنا، أصدروا تعليماتهم. طلبوا من الغفر، حرسهم الله ورعاهم، بـأن يكونـوا علـى مستوى المسئولية الخطيرة، لن يقترب العفريت من القريـة، لقد أقام لنفسه قرية أخرى هناك، لا يجب علينا أن ننتظـره. يجب أن نتحرك إليه. وإلا امتدت قريته حتى تأخـذ قريتنـا معها، معذرة يا حضرة العمدة أحد الشبان يتطفل عليكم. سمة

أخرى من سمات هذا الزمان الوغد، كن صبورًا، أنت أب لنا نفخر به جميعًا.

قتل العفريت، ليس خالصًا لبلدي.

أضحت قريتنا كاليتيم يبكي أبويه في حزن. الشوارع صامتة، البيوت ثكلى تطلب الأمان، الجدران تنوح. النفــوس قد أصابها عقم مزمن.

قتل العفريت. هو الخلاص الحقيقي لي.

لو ضاعت هذه الفرصة. لضاع مني العمر كله.

لا بد من قتل العفريت.

لا بد من قتله.

لا بد.

١٩٦٧

" تمت "